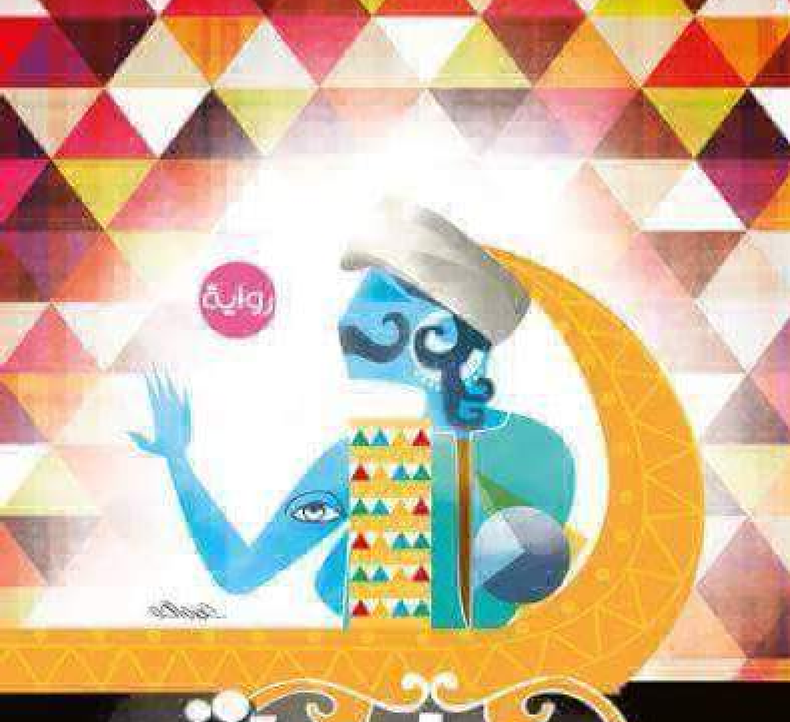


سواسية

منة الله رآفت



سواســـية

رواية

منة الله رأفت

اسم الكتاب : سواسية (رواية)

اسم الكاتب : منة الله رأفت

رقم الإيداع : 13211/ 2015

الترقيم الدولي : 9789776527034

الطبعة الأولى : 2015

مراجعة لغوية، وإخراج : هيام فهيم

صادر عن : مؤسسة زَحمة كُتَّاب للثقافة والنشر

15ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة

www. za7ma-kotab.com

www.facebook.com/za7ma

www.facebook.com/za7makotab

za7ma-kotab@hotmail.com

01205100596



إهداء

إلى كل امرأة قُهرت من ظلم الرجال، اصنعي لنفسك حياة تنجيك، لكن احتفظي بأنوثتك، فأنوثتك ليست بعار .. إلى كل رجل ظلمته امرأة، اقوَ على هزيمتك، فإنها تجارب أنثوية تنتفض من قهر بعضهم .. إلى كل رجل، امرأة، عُرف الله بالحب، فلا تخن كلمة من روح الله.

إلي ملهمة تلك الرواية،أم زوجي، الحاجة ليلى، تلك السيدة الجسور التي تحملت عناء العمر لتحقق أسطورتها البسيطة، أن ترى أبناءَها في أفضل حال، افخري بنفسِك فقد استطعتِ تحقيقها، وبيننا من لم تصل بعد لدرب يحقق أسطورتها .

منة الله رأفت



1

تواتر في الموروثات الشعبية أن هناك ساعات نحس تتخلل في

يوم الجمعة تفسده، حيث يحاول الشيطان إلهاء الناس عن الصلاة وذكر الله، وإفساد عيدهم ، فيصنع العراقيل والمشكلات وينشر الأحزان في ذلك اليوم، ولما كان هذا هو المعتقد حرص الناس على إشعال البخور ورش الملح في الأرجاء، ومسح الأرض بالماء وبعض الأعشاب لطرد الجان والأرواح التي تجلب الفقر والنحس والحزن على أهل الدار.

وكعادة "زبيدة" استيقظت من نومها تتمتم وتستغفر مع أذان الفجر يوم الجمعة ، تشق سواد الليل بنور وجهها ، امرأة بيضاء، فارهة الطول، ومتناسقة القوام، رأسها مكلل بشعر أسود مفروق،

مسترسل بضفيرة غليظة يعلوها منديل مزركش بألوان الطيف، يخفي عمرها الذي تجاوز الأربعين.

تخرج من حجرتها ممسكة بظهرها، متمتمة بكلمات تجلب الرزق والخير لأهل الدار ..

– يا فتاح يا عليم، يا رزّاق يا كريم، يا رب استر علينا واجعل يومنا نادي، وابعد عننا شياطين الجن والإنس.

تقترب من المصباح المعلق في ساح ة المنزل، تشعله وتنادي أبناءَها للاستيقاظ لصلاة الفجر ..

– يا محمد، يا مصطفى، قوموا يا أولاد عشان تلحقوا الفجر.

يرد عليها صوت شاب متكاسل يتثاءب من شدة رغبته في النوم:

– شويتي كده وهصحى.

فترد عليه غاضبة



- مفيش غير أبوكم هو اللي بيقدر عليكم.

يا سواسية، يا حاج سواسي، صلاة الفجر هتروح عليكم.

يقوم الحاج سواسية من فراشه متباطئًا، يستغفر ويتمتم، وينادي على أبنائ..

- سبحان الذي أحيانا .. يا محمد، يا مصطفى .. صلاة الفجر وجبت.

ما أن سمع صوته وقد استيقظ ، هب الولدان منتفضَ ين من فراشيهما متسابقَين في ارتداء جلابيبهما ، بينما دخل الحاج سواسية إلى دورة المياه ليغتسل ويتوضأ استعدادا لصلاة الفجر مرتديا بنطالا قطنيا ملاصقا لجسده وفانلة بيضاء بنصف كم، ووقفت له زبيد ة بالمنشفةخارج دورة المياه، أخذها من يدها وذهب يستر جسده بجلبابه الأبيض الذي سهرت زبيد ة على كيه، خ رج الابن الأكبر

محمد يتثاءب في كسل، وتتبعه امرأة قصيرة تعصب شعرها بمنديل مزركش اللون، يضفي على بشرتها السمراء جمالا وسحرا، تتبعه إلى دورة المياه وفي يدها ملابسه النظيفة ومنشفة خاصة به.

دخل محمد دورة المياه، بينما انتظرته زوجته بملابسه على بابها، ألقت التحية على زبيدة:

– صباح الخير يا أمي.

– صباح النور يا بنتي، نموسيتكم كحلي.

فنظر لهما مصطفي مبتسما مناديا على أخيه يستعجله لإنهاء حمامه، ناظرا لزوجة أخيه مداعبا . .

– سيبيهم يا أمي، شكلهم كانوا بيحاربوا العدوان الإسرائيلي ويرجعوا الأرض لأصحابها، المهم يا أمينة كانت المدافع سليمة ولا مضروبة؟!

فتنهره أمه، وتضحك أمينة في استحياء، بينما خرج محمد وهو مبلل الرأس، فتلاحقه أمينة بالمنشفة والملابس، متهكما على أخيه ليرد له صفعته الكلامية:

- ده احنا مدافعنا أرض جو، مش زي مدافعك بتضرب من قبل ما تقوم.

فهب الحاج سواسية بصوت غليظ ، يحثهما على الهدوء وعدم المبارزة بالكلمات، فاليوم يوم الجمعة، ولا يجوز التشاجر.

- مصر مين يا ابن زبيدة اللي تنهزم، لا إسرائيل ولا العالم يقدر عليها، والقلم اللي خدناه يوم هنرد عليه بأكبر قفا، مصر محفوظة يا ابني.

خرج الجميع للصلاة، ووقفت زبيدة لتودعهم وتغلق الباب خلفهم، وتتوجه إلى المطبخ، وخلفها زوجة ابنها لتحضر لهم طعام الإفطار

فور وصولهم من الصلاة، فقد عُرف الحاج سواسية بحبه للأكل، وأنه لا يقبل بتأخر الوجبات عن الموعد المخصص لها، وكانت هي تحاول إرضاءه بكل طاقتها.

أشعلت المذياع على صوت القر آن الكريم، وذهبت أمينة لتجهيز الفول والجبن والبيض المقلي في السمن البلدي للإفطار ، وضعت الإفطار فوق الصينية المخصصة للطعام حتى يعودوا من صلا ة الفجر، ثم ذهبت تلملم الملاءات والملابس المتسخة للغسيل، فمن العيب أن ينشر الغسيل بعد الساعة العاشرة صباحا، فكانت النساء تتهافت على الأعمال المنزلية ونظافة منزلهن، ونصاعة بياض ملابسهن، فهذه هي مقاييس الأنوثة لديهن.

وقفت زبيد ة تشرف على أمينة وهي تغسل غسيلها مرة واثنتين وثلاث حتى لا يُقال عنها قائلة، فالنساء لا تقوم بشيء سوى

الحديث والنميمة عن أحوال الغير، ولابد لمن تتزوج الحاج سواسي أو أحد أبنائه أن لا تُذكر إلا بالخير والكلمة الطيبة الحسنة، وأن توصف بنظافتها وكفاءتها في الأعمال المنزلية.

انتهت أمينة من تنظيف الملابس وصعدت أعلى منزلها لنشرها قبل أن يتضح النهار فيشمت بها النساء من أهل القرية، صعدت وعلى رأسها سبت الغسيل المبلل الذي يغرق جلبابها بمياهه.

صعدت خلفها زبيدة متباطئة ممسكة بحائط السلم الضيق، إلى أن وصلت أعلى البيت المبني بالطوب اللبن بواجهته ذات الرسوم النوبية، التي تحمي البيت من الجن والشياطين. وقفت فوق سطح المنزل تنشر الملابس مع نسائم الصباح المنعش وزقزقة العصافير والحمام الطائر في السماء يشق الليل لتخرج أشعة الشمس معلنة بدء



يوم جديد، وعلى امتداد بصرها يقبع نهر النيل متفتحا مزهرا بحضارته وسحره الخلاب.

على المنزل المجاور تقف جارتها الست "سيدة" مع ابنتها ، تقلب قرون الفلفل الأحمر في الهواء لتجفيفها في سلاســل من الخيــط لصناعة الشطة الحمراء.

تقف "سيدة" تتبادل خيوط الحديث عن أحوال القرية وجارتها "ذكية" التي لم تحظى بإنجــاب الذكــور، وكيف يعاملها زوجــها ويهددها بالزواج عليها، وتضحك سيدة مناوشة زبيدة:

– انتي، انتي مالك باللي بتتكلم فيه ، ما طول عمره سي الحاج سواسية حاطك على دماغه، وبطنك شالت بدل الصبي اتنين، حتى لما جوز ابنته ما مرتش السنة إلا وحفيده في حضنه.

تكبر زبيدة في وجهها، وتفتح كفيها والخمسة أصابع في وجهها . .

- لا، لا يا حبيبتي، اوعي تنسي الموضوع ده، ده انتي جوزك لسه في عز صحته، ومعاه اللي يخليه يبص بره، وانتي يا أمينة، هاتيهم ورا بعض كده، يكبروا في طولك.

يقطع حديثهما صوت الحاج سواسي ة أسفل الدار واقفا مع شيخ المسجد ومجموعـة من الرجال، يجمعـون أموال الصدقة، التي كان الحاج سواسية مع شيخ المسجد يقيمان لها صندوقا لجمعها من المصلين، لتوزيعها على الفقراء .

وكانا يقفان بعد الصلا ة أمام المسجد لحث المصلين ع لى التبرع ببعض المال لمســاعد ة الفقراء من أهل القرية، وكان لوقفـة الحاج سواسية عظمـة تره ـب المصل ـين تدفعهم لوضع ما يطيقـون في الصندوق، رأته زبيدة من أعلى المنزل، فتركت سيد ة وطلبت من

أمينة ملاحقتها ونزلت مسرعة لوضع اللمسات الأخيرة للإفطار، من طبق السلطة الخضراء وتسخين الخبز.

دخل الحاج سواسية في رفقة ولديه مودعا شيخ المسجد داعيا إياه لتناول الإفطار معه، ووسط دعوات الشيخ بالفلاح والصلاح وتقبل الأعمال، أغلق سواسية الباب مقبلا بنفس شهية على الإفطار، والجميع ملتفا حول الطعام، الذي التهمه سواسية بأصابعه الخمس كعادته، مع مغازلة زوجته . .

– أما عليكي طبق فول يا زبيدة، معتبر، ينغشش في الدماغ!

فردت عليه تعلو الابتسامة وجنتيها :

– تعيش يا حاج، كله من خيرك.

قام سواسية من على المائدة متوجها إلى حجرته ليأخذ قسطا من النوم إلى أن يُؤذن لصلاة الجمعة، وخلفه زوجته تساعده في خلع

عباءته مناولة إياه عباءة المنزل التي تضيق على صدره ، بسبب سمنته التي تظهـــر على ثدييه وبطنه، بينما تركــت أمينة تلملم الصحون بعد الإفطار.

استلقى الحاج سوا سية ليخلد لنوم عميق ، بينما ذهبت زبيد ة لاستكمال طقوس يوم الجمعة، فعلا صوتها بالأدعية أثناء رش الملح في أرجاء المنزل، كما علا صوت أبنائها متشاجرين على بعض نقود أدخروها، يريد الأول أن يستولي عليها بجبروته وغلظته، فهو يشبه أباه في الغلظـــة والملامح الجامـد ة وبنية الساعـد العريضة ، وصوته المتحشرج، الذي لا يخلو من البح ة كذكر البط عند الصياح، أما مصطفى فيشبه أمه في بياضه وطول قامته، وتشابه الاثنان في لون شعرهما البني الأشـرد، وذاك الشـــارب الذي بدا في تزيين وجههما ليعلن بدء رجولتهما .

تدخلت الأم على الفور خوفا من استيقاظ سواسي على صوتهما، وأنصفت الصغير كعادتها.

مرت الساعات سريعا وأُذن للصلاة من يوم الجمعة، ودخلت زبيدة على عجل توقظ زوجها الحاج سواسي ة، لكن دون جدوى، فقد دخل زوجها في نوم عميق لا استيقاظ منه، ذلك النوم الذي ينتهي به عمر الإنسان، منتقلا به إلى بارئها.

صاحت زبيدة، مستنجدة بأبنائها، وأطلقت صرخاتها وعويلها في المدائن، فاجتمع أهل الحي في لحظة بمنزل الحاج سواسية، يقلّبون الأكف تحسرا على وفاته.

– لا إله إلا الله، ده الراجل كان لسه مصلي معانا الفجر.

– هو الموت كده، عامل زي الحرامي، بيخطف الناس الجدعة.

– وحدووووه.

وسرعان ما أعلنوا الخبر من أعلى منبر المسجد ، ليجتمع أهل البلدة جميعا لأداء واجب العزاء والصلاة على المتوفى.

اتخذ شيخ المسجد ركنا لتلاوة القرآن بعذب صوته بينما اجتمعت السيدات لمواساة زبيدة وتهدئتها وسط عويل ودموع كل منهن.

– هدّي نفسك يا زبيدة، ده حال الدنيا ، كلنا لها .

– ده كان واقف الصبح زي الفل، مرة واحدة كده يا أختي.

– يا أختي والله فطر ودخل نام والابتسامة على وشه.

– من الصالحين والله — ده ميت يوم الجمعة.

ودخل الولدان مع ذلك الرجل الذي عُرف عنه أنه يقوم بتغسيل الموتى، لما له من خبرة بأمور الموتى، فتصيح زبيدة فجأة بالنواح:

– ياللي مشفتش منك يوم مر، أقوم أنا أغسله، أودعه وأطبطب عليه.

تنظر لها السيدات في غرابة مشفقات على حالها ..

- يادي العيبة مَرَة تغسّل راجل!

- لا يا زبيدة، اتقي الله، ده خلاص اتحرم عليكي، ورجع للي خلقه.

فتصر زبيدة على رأيها ..

- والله ما حد مغسّله غيري، ده أنا اللي طول عمري خادماه، مش هخدمه في خرجته؟!

يخرج على صوتها ابنها الأصغر، يهدئ من صياحها ..

- احنا عياله يا حاجة ومعاه ومش هنسيبه، افتكريه بالرحم.

فتقتم زبيدة غاضبة، فينهرها ابنها الأكبر بصوت غليظ جاف، من داخل الغرفة

- صوتك بوى يا أما، انتي عايزة تفضحينا وسط الخلق!

تصمت وتعود لبكائها وعويلها ، وسط السيدات من أهل القرية،

فيتركها ابنها ويعود لمجلس الرجال، حيث الاستعداد لغسل المتوفى.

يقف المُغسل يحضر المياه وقطع من القطن، باسطا مفرشا من

البلاستيك فوق طاولة العالية.

بينما هو يجهز هذا ، يخلع ولداه عنه ملبسه، فيشقون عباءته بمقص

حاد إلى نصفين، فتبرز سمنته في الملابس الداخلية واستدارة ثدييه

وترهله، فاقترب المُغسل ليساعد الشابان، فخلع عنه رداءه التحتي

الأبيض ليبدو عاريا ممتلئ الصدر لين، مما أزاغ بصر المُغسل عليه ،

حيث راق له مظهر الثديين اللينين اللذين يشبهان أثداء المرأة.

ولكنه استعاذ من نزغ الشيطان ، وعلا صوته بالأدعية لطرد إبليس

اللعين، متذكرا ما كان يدور حول المتوفى من مغامرات نسائية كان

يحكيها سواسية ذاته، بحنكة رجل مرح مخضرم في الأمر النسائي ،

فيقهقه على أحاديث المقهي ، وتتنقل من رجل تلو الآخـــر، فابتسم ثغره متمططا:

- لســـه روحك حواليك وبتضحكنا وأنت ميت، ربنا يرحمك يا حاج، والله هتوحشنا.

وفي لحظـات بين تفكيره، خلع الولدان عنه ملبســـه السفلي ، ففزع الجميع وصاحوا يستغفرون، وهلع المُغسل هاربا يستغيث.

تعجب الجلوس مما رأوا، فقد ظهر جسد الحاج سواسي ة المكتمل الأنوثة عاريا تماما، لا يكسوه سوى بعض من الشعر المتفرِّق.

ذُعر البعض وظنوا أنه قد لُبس من أحد الجنيّات، وراحوا يصيحون

- أستغفر الله العظيم.

- إيه اللي حصل ده؟!

- الحاج سواسية اتقلب حُرمة!

- الحاج سواسي طلع مَرَة!!

أما السيدات فكتمن ضحكهن أمام غرَابة المشهد، وتدحرجت عشرات الكلمات من أفواههن، وسط نظرات خبث موجهة لزبيدة:

- إيه يا أختي اللي بيقولوه الرجالة ده؟!

- هو اسم النبي حارسه ملبوس؟!!

- معقولة الحاج سواسي مكنش راجل!!

- معقول ده يا أختي، طب العيال دول جم إزاي؟!

- ما تنورينا يا زبيدة، وقولي لنا إيه اللي بيجرى يا أختي.

بينما هن يتاهمسن وسط هياج الرجال وصياحهم، وخروج الشيخ عن وقاره، فصمت عن تلاوه القرآن وراح في ذهول يبحث الأمر، داعيا بآيات منجيات تخرج الجني الذي لبس الحاج سواسي، فأظهره

على هيئة أنثى، فراح يرش الملح على الجثة مستغفوا، ومتمتما بعبارات تطرد الجان، مطالبا بإشعال البخور.

وصل الخبر إلى مركز الصحة، فخرج طبيب متوجها إلى منزل الحاج سواسي ليبحث الأمر ويبدي رأيه فيما يقولون.

وما أن دخل عليه طبيب الصح ة ومن النظرة الأولى علم أنه امرأة، لكن طلب منه الشيخ أن يكشف عليه علّه مخطئ، فبعد الكشف أكد الطبيب أن الحاج سواسي ما هو إلا امرأة تحمل كل معالم الأنوثة من رحم وثدي ، ولا وجود لذكورة الحاج سواسي، قالها معلنا خداع الحاج سواسي، وضرورة إخطار الشرطة للبحث في الأمر.

انتشر الخبر في القرية، وذهب الولدان إلى أمهما مطالبينها بتفسير ما حدث، فجلست صامتة لا تعرف ماذا تقول، تقتلها نميمة

النساء ، ونظراتهن الشامتة، وظنون أبنائها المشردة، فأمسكت

بقشرة الغيبيات لتحميها من نظراتهم .

– طول عمره كان بيحكي لي إن في بسم الله الرحمن الرحيم

عايزة تتجوزه، تلاقيها سخطته مَرَة لما مات عشان تنتقم منه، أنا

أكيد نسيت أرش ملح كويس النهارده بسبب خناقكم وصوتكم

العالي مع بعض.

تنظر إلى أبنائها ، فتصمت النساء وتتركنها وحدها ، ليجدن متنفسا

للضحك والاستهزاء خارج المنزل، أما إبناها فلم يقتنعا بما قالته.

– بقينا لوحدنا والشرطة جاي تحقق في الموضوع، هنمشيها جن

وخُزعبلات ولا نعرف الموضوع ؟! .. خصوصا إنك كنتي

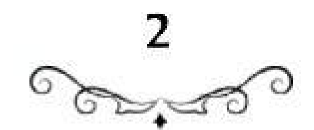
عايزة تقومي تغسليه .. ولا ده كمان هتقولي صدفة؟!

تنظـر لهما أمهما والدمــوع في عينها، فالأمــر قد فُضح، ولابد أن تحكي ما تعرفه، لتنقذ نفسها من تهمة التزوير والشذوذ، معلنة أنها لم تعاشره يوما معاشرة الأزواج، فصاح الولدان في غضب لافح.

- و احنا ولاد مين ؟!!



2



ذيع الأمر وانتشر بين ألسنة أهل القرية مستنكرين ما حدث، متسائلين: كيف لامرأة أن تخدعنا كل هذا العمر؟!

جلس الرجال على المقهى مستنكرين ما يحدث يتذكرونه ب أفعاله بينهم، فيجلس صديقه السيد معروف، وقد كسا البياض رأسه، ذاكرا إياه يوم أخذه في رحلة إلى أحد شوارع البغاء، تنفيسا عن ضيقهما، فتراهنا من منهما سيُمتع تلك العاهر ة أكثر، وكان الرهان من نصيب سوا سية حيث خرجت السيد ة تمدحه، بل تحوّل الأمر بعد عدة لقاءات بينهما إلى حب عظيم، تخلت فيه العاه ــرة عن عملها، وراحت تجول خلفه أينما ذهب، رغم تمّنعه عنها، ونهره لها أكثر من مــرة إلى أن بنى لها بيتا وترك لها ما يكفيها من مال لإعاشتها، واختتم كلامه:

– انتوا هتجننونا ليه، إزاي يكون مَرَة ويغوي المَرَة دي؟!!

فيرد عليه أحد الجالسين ضاحكا:

– ما يمكن عجبها عشان مَرَة، النسـاوين دي بتحـب التجديد بردو.

فيرد "حمو" صبي المقهي مستنكرا:

– مَرَة إيه بس يا جدعان، ده كان بيضربني القفا يتولني.

فاستلقى الجميع على ظهورهم ضحكا ..

– ما هو لأنك مَرَة يا حمو تولك قفا مَرَة زيك.

أشعلت الكلمة غضب حمو، فأجاب عليه في استهزاء لرد السَّب عليه:

– ما بلاش أنت يا معلم فكيه، ده ضربك علوة مشالكش فيها غير الإسعاف.

ويذكر آخر وقفاته السياسية، وحزنه الذي فطر قلبه عقب أحداث نكسة 1967، ورغبته في التطوع بالجيـش لولا وقوف أهل القرية لمنعه لكـبر سنه، واحتياج القرية لرجل مثله لحمايتها، فأجبر عدد كبير من شباب القرية في التطوع، ومنهم ابنه الأصغر.

بينما يضحك ويتلامذ الرجال على المقهى، تجلس النساء يتهامسن على الأرصفة وفوق أسطح المنازل.

يتبادلن الحديث عن سواسية، فتترحم عليه إحداهن لما قدَّمه لها من مسـاعدة، وكيف كان يشعر بالمظلومات من النساء، فلا يتأخر عن مساعدتهن، رامية ذلك إلى كونه امرأة، فترمقها واحـدة بنظرة شماتة متسائلة:

– مش ده اللي كنتي هتموتي عليـه عشان يجي يتجـوزك بعد موت جوزك!

فتجبها نافية:

– أنا ! ! . . أبدا، وهو أنا بردو آخد الراجل اللي كان متجوز صاحبتي، دي زبيدة دي عِشرة عمر.

– انتي لسه بتقولي راجل ؟ !، أهو ربنا رحمك من المقلب اللي كنتي هتقعي فيه.

تضحكان، ولمي صوت من قريب، يهمس لإحداهن:

– أتاريه رفض الجواز مني زمان، قال إيه مش قادر يتجوز بعد ما مراته ماتت !

– كان بيداري خيبته وفضيحته.

– إلا يا اختي تفتكري زبيدة جابت الواد ابنها من مين؟ !

– انتي بتدوري ع العيل التاني، اسألي الواد الأول ببوين مين، وابن مين ! !



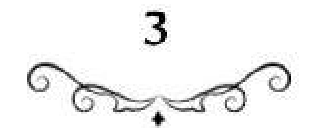
- حوق، ربنا يستر على ولايانا.

- ولا ميسترش، فِكرِك الحرام بيستخبى للآخر، لازم هيجي له يوم يتفضح، هو لو كان راجل كان سمّى عيلين مش من صلبه على اسمه!

- آه يا ني من بنات البندر .. ومصايب بنات البندر!

***

3



تجلس زبيدة على أريكة تزركشها رسوم المفارش التي تكسوها، تفوك بأصابعها، وقد اجتمع حولها أبناؤها وبعض من رجال الشرطة، وطبيب الصحة.

تبكي مؤكدة أنها لم تكن تعرف حقيقة كونه امرأة، وأنها لم تعاشره يوما معاشرة الأزواج، فاستراحت في مجلسها، وعادت بذاكرتها إلى ذلك اليوم.

يوم قررت أن تبتعد عن أسرتها، هاربة إلى مصير لا تعرفه، تنظر إلى خطيئتها التي تحملها في رحمها، خائفة من القتل جراء فعلتها الشنعاء باسم الحب، فباسم الحب صدّقت حديثه المعسول، وباسم الحب سلّمته نفسها ليذوق طعم العفاف الذي ينبت بين فخذيها، فقد كان رجلها الذي فتحت عينيها عليه، كان

يكـبرها بعامين، ويعيش معها في نفـس الدار ، يلحـدى ضواح ي الإسكندرية، ابن خالتها الذي شعرت على يديه بوسامتها وتفجرت أنوثته بين يديه، فكان المجيب الوحيد لنداءات جسدها الذي يلتف ويظهر يوما بعد يوم.

واعـدها بالزواج فور حصـوله على التوجيهي، فسلَّمـت له نفسها على طبق من فضة، تلألأ بين عينه بالضي، فأخذها دون أن يبالي بما سيحـدث لها جراء فعلته، وبعد أن قذف جنينه برحمها تركها، نهـرَها بكل ما أوتي من قوة، نسي القرابة وصلة الرحـم، وصفها بأبشع الأوصاف، ساءَلها عن ما يضمن له وفاءَها، فلعلها أخطأت أيضا مع أحدهم، لم تجد سبيلا إلا أن تحمل خطيئتها وترحل.

لملمت أغراضـها، وبين خيوط الفجـر الرقيقة غادرت، فسـاقتها قدماها لمحطة القطار، فقطعت تذكرتها وانتظرت القطار ليأخذها

إلى قدر تجهله، وفي خوف تشبث بأوجلها وثبت في ملامحها، انزوت على أحد المقاعد القريبة من شباك القطار، و أمامها رجل يرتد ي جلبابا واسعا أبيض، وبشرته السمراء تضفي عليه رمزا من البهاء، شق القطار رحلته من الإسكندري ة إلى أسوان مارا بالعديد من القرى والنجوع والأقطاب، فقد كانت الساعات تمر دون أن تشعر بها، بعدما غرقت بالنظر من شرفة القطار، تنظر أي البلاد ستضع بها رأسها وه ي لا تعلم من الدنيا بشرا ، تعجَّب الرجل من صغر سنها، فسألها:

- إلى أي بلد تسافرين؟

فصمتت لا تعرف ردا، فصمت الرجل بره ة بعدما شعر بخوفها، ثم استطرد حديثه معها، علَّها تروي له حكايتها، وبعد أن اطمأنت له ووجدت فيه الشهامة التي يمكن أن تحفظها، سألته عن مكان تبيت

فيه في بلدته، فأجابها بوجود المبيت، ولكن لا بد وأن يعرف لماذا هربت من بيت أهلها ، ومن تكون؟ !، فبكت وأجابته، بينما القطر يجـري يقطع أشجـار الطريق ، ويقدِّمها هدية في مسبحـة الليل السكـين.

سمعها وحزن لحالها، فطمأنها ووعدها بالحفاظ عليها والتستر على فضيحتها، فاندهشت الفتاة، وركعت تقبِّل يديه ورجليه، فأجلسها جواره، وقال لها:

- إن الوقت ليل، وغدا سيمر القطار على الأقصر، سننزل بها وأكتب عليك، ثم نعود إلى حيث أقطن بأسوان.

تفتَّح الليل بأشعه الشمس المبهجة، وزقزقة العصافير واللون الأخضر الذي مدَّ بصرَها من شرفة القطار، وقد أدخل وجود ذلك الرجل الطاهر الطمأنينة في نفسها.

وصلا إلى الأقصر، فنزلا متوجهان إلى أقرب كاتب شرعي يكتب عقود الزواج، فأخرج بطاقته للشيخ، فكتب اسمه في عقد الزواج ، السيد "سواسيةِ شكر الله"، أما السيدة فقد كتب اسمها بناء على ما ذكرته له ، حيث أنها لا تحمل أيِّ أوراق ثبوتية، فقالت له أن والدها متوفى، وما لها من أحد، ووجودها مع ذلك الطاهر سيؤمِّن لها الحياة الكريم، وذكرت له اسمها "زبيدة متولي" .

عُقد القران، وعادا إلى القطار، ليتوجَّها إلى أسوان، حيث يقطن سواسية.

هنا قاطعها ابنها الأكبر – محمد :

– يعني أنا ابن حرام، وسواسية عطف عليكي، فكتبني باسمه!

فقالت له في عجل توضح له:

– لا، أنا ابني مصطفى، أما أنت فكنت موجود لما جيت هنا .

فنظـر إليها منده ـشا ، فارها فاه، منتظـرا منها إجابة عن ماهية كينونته، أما ابنها الثاني فنهرها، وتركها متجها خارج المنزل.

بينما هو خارجا وجد سيدة أربعينية تسأله إذا ما كان ذلك البيت لسواسية، فأجابها بنعـم ، وأدخلها إلى أمه، فتعجبت زبيد ة من السيدة، فقد كانت المر ة الأولى التي تري فيها تلك المر أة، فسألتها عن هويتها ، وعلاقتها بسواسية.

فاجئتها إجابة السيد ة، فقالت أنها علمت بوفاة سواسية، واللغط الحادث حول وفاتها ، ثم أردفت متسائلة:

– هي سواسية لساها ست زيها زينا ؟

تعجبت زبيدة والحضور لسؤالها، وعلى الفور توجّه إليها الابن الأكبر متسائلا:

– انتي تعرفيها ؟ !



فقالت له على الفور:

- ايوه يا ابني، دي صاحبتي من الطفولة.

فطلب منها الجلوس والإفصاح عن هويتها ، وما تعرف عن المتوفى، فذكرت لهم السيد ة أن معرفتها بسواسية ترجع إلى القاهرة، حيث كانوا يقطنون في قرية واحدة على ضواحي القاهرة، وكان لها جارة لا تنجب، تقطن في الشارع المجاور، كان معروف عنها أنها من أسوان حيث البشرة السمراء والطيبة

كانت الجارة معتادة السفر إلى أخيها الذي عُرف بنبل أخلاقه وعطفه عليها، فكانت تذهب له كلما احتاجت إلى مال، أو كلما تشاجرت مع زوجها سيء السمعة، غليظ المعاملة.

كان أخوها بالنسبة لها العزوة والسند الذي تلجأ إليهم، وبعد وفاته استقرت فترة طويلة في بلدها أسوان، وبعد شهور نزلت نبيلة ومعها

سواسية – منة الله رأفت

سواسية ابنة أخيها، وأخذت تحكي للناس ما حدث لأخيها وزوجته التي انتظرت الإنجاب ثلاثين عاما، ويوم أنجبت توفيت دون أن ترى طفلتها.



***

4



في إحدى قرى أسوان، وعلى الجانب الغربي لنهر النيل، تجلس سيدة في منتصف الأربعينيات بجوار النهر، تفكر في حالها، كيف تحملت عناء نظرات الناس وهمساتهم عليها طوال تلك السنوات، ثلاثين عاما منذ أن تزوجت من السيد شكر الله وهي طفلة ابنة خمسة عشر عاما، تنتظر أن يكتمل لها حملا يوما، لكن كُتب عليها أن يكون رحمها خواء لا يحمل الأجنة، عاقرا في مجتمع لا تستحق فيه أن تعيش سالمة من أعين الناس وهمساتهم وكلماتهم اللاذعة، مجتمع وضع أنوثة المرأة في رحمها، سيادة كلمتها فيه تبدأ مما يحمله رحمها، فلحاملة الذكور الكلمة العليا، هكذا اعتدنا أن تكون المرأة في عصر لم ينصفها، أو يبرئ عقر رحمها ويضع الزوج معها في قفص الاتهام، لتصبح هي وحدها المسئولة أمام المجتمع عما يحويه رحمها،

فيكافئها المجتمع بالسيادة والكلمة العليا متى كان رحمها ينجب الذكور ويهمشها متى أنجبت الإناث، أما العاقر فلابد من استئصالها من المجتمع، لابد وأن يتزوج عليها زوجها، وبالفعل تزوّج من أخرى لكنها لم تنجب أيضا فطلّقها وراح يهدد الأولى بالزواج ثالثة ورابعة، وما عساها أن تفعل وقد جرّبت كل أنواع فك الأعمال و إرضاء الأسياد وفض العكوسات التي تفقدها الأجزة، نامت تحت القطار الذي يمر مرة واحـدة أسبوعيا على الضفـة الشرقيـة أمام قريتهم، ونزلت المقابر وسارت على عظام الموتى، فعلت كل شيء لأجل أن يرزقها الله بالولد الذي سيرث ما يمتلكه زوجها، فقد كان رجلا ذا ثروة، له بيت وأرض ومقهي سياحي كبير على الضفة الشرقيّ من نهر النيل، كان يرتاده أهل أسوان والأجانب، لِما كان من قربه من وسط المدينة ومحطة القطار محط الأنظار.

أفاقها من فكرها قدوم المعدية التي ستنقلها إلى البر الشرقي حيث يقطن مقهي زوجها، ومعها طعام الغداء قد حضّرته كعادتها ليتناوله بمقر عمله.

ركبت المعدية وفي يدها عامود الطعام ، لتصل إلى البر الشرقي، مشت في خطوات ثابتة عابرة الطريق، لكن الوهن وحزنها على فراغ رحمها كانا رفقاء رحلتها الأوفياء، وما أن وصلت إلى المقهي ارتمت على الأرض في دوار عنيف افقدها وعيها لدقائق، انتقلت على أثره إلى المنزل مع زوجها، الذي طلب من جارتها الاعتناء بها، وانتشر الخبر فجاءت السيدات لزيارتها والاطمئنان عليها .

قامت إحداهن بالكشف عليها، حيث كانت معروفة بقدرتها على علاج وتوليد النساء، ومباشرتهن حتى تجد حلا لأوجاعهن الجسدية والأسرية أحيانا، لما كان لها من بشاشة وجه استبشر بها

أهل القرية في العلاج والتوليد، وشعروا أن بوجودها يُولد الصبي، بوجودها يملكن الكلمة والسيادة، فكانت تفعل ذلك مقابل بضع ة مليمات، وأحيانا لا تتعدى مساهمتها الثلاث بيضات، ولكنها كانت تشترط على الحامل كسوتها بعد الولادة – حلاوة المولود، وكانت السيدات تلتف حولها، تعاهدها وتستبشر منها حلو الكلام.

ارتخت "ست الدار" لتعطي فرصة للقابِلة أن تكشف عليها، وعندما بشَرتها بحملها، ضحكت مستهزئة:

– انتى هتخرفي يا ولية، بعد ما شاب ودوه الكُتّاب!

– يا بت صدقي خالتك العجوزة.

– وده جا لك في الحلم يا خالتي!، الظاهر إنك كبرتي وخرّفتي!

– لا . .

– لا، حامل؟!

رغم عدم اقتناعها بث الأملُ روحَها من جديد ، مستبشرة بحديث العجوز، فطِنت العجوز لفرحتها فطلبت منها أن تعاهِدها على كسوتها إذا اكتمل الحمل وجاء ها الصبي، فردت عليها فرحة تعاهدها:

- يا خالتي، بت و لا واد ، في الحالتين ليكي الحلاوة، ندرا عليا لو كمل الحمل وخلفت لاجيب لك جلبيتين يدفوكي طول السنة.

انتعشت السيد ة العجوز في مجلسها ، وخبطت على صدرها من فرحتها . .

- جلبيتين حته واحدة ! !، انتي اللي قلتي وركّبتي نفسك ندر، لو معملتيهوش هتتحاسبي عليه، والأسياد مش هيسيبوا عيلك في حاله.

- يا خالتي بعد الشر، إن شاء الله هوفّيه، بس انتي ادعي لي.

طارت البشارة إلى مقهي السيد شكر الله زوج ست الدار، كما طارت أخبار تفكك الدولة العثمانية وأنباء إلغاء الخلافة الإسلامية من أرض الترك إلى العالم أجمع.

تعجّب الرجل وحمد الله، وسقى الحي شربات حلاوة الخبر وأهدى قرشا لحامله، فدخلت السعـادة للطفل الحامل للخبر، وراح يجري يشتري الحلوى لتوزِّع على الأطفال.

عاد السيد شكر الله محملا بأجود أنواع الأطعمة والفاكهة، وراح يدلل زوجته ويأمرها بعدم الحركة، لتكمِل مهمتها في الإنجاب.

وراح يدعو ويطلب من الله أن يرزقهما بالذّكر الذي سيحمل اسمه، ويرث ما سيتركه، ويمنع عودة ثروته لإخوته الذين لا يرى فيهم خيرا، بل الطمع والجشع، حيث يأتون إليه ليأخذوا ما يستطيعون أخذه، غير مبالين بما يمر به من ضيق جراء عدم إنجابه، بل كانوا دائمي



التحدث بذلك الأمر لتذكيره بأن كل ثروته ستؤول إليهم يوما ما، مما جعل السيد شكر الله يتوقف عن عمله شاعرا بعدم قيمة المكسب طالما سيأخذه إخوته، أما الآن فقد منَّ الله عليه بالإنجاب ، وذات يوم سيأتي الولد الذي يعوِّضه عن كل ما فاته، وستؤول إليه ثروته.

يروي ما به لزوجته، فتضحك مؤكدة أن لا فرق لديها من أن يكون الطفل ذكرا أو أنثى، فجُل ما تتمناه أن ترى صغيرها وتهدهده كما تفعل الأمهات مع أطفالهن، ذلك الشعور الذي افتقدته، وطالما تمنته ودعت ربها أن يتحقق.

استقر الحمل وانتفخ رحمها بجنينه، وباتت تزهو برسمة جسدها وثديها الذي امتلأ بحليب طعاما لمولودها بلا تمييز بين ذكر أو أنثى، فمهما كان نوع طفلها فقد رزقه الله طعامه، بلا تفريق أو تمييز.

تحسس بطنها لتشعر بحركة طفلها ، فرِحَة بإحساس لم تنعم به من قبل، شعورا كان لديها مستحيلا.

بلغت ست الدار شهرها السابع، وسط فرحة من عرفها، ودعوات زوجها وانتظاره لولي العهد، ذلك الصبي الذي سيحجب أمواله عن إخوته، سنده وعونه في الدنيا .

وسط تلك الأجواء كان السيد شكر الله مواظب ا على الذهاب للمقهي الذي يملكه القاطن في الجانب الشرقي لنهر النيل، ويعبر إليه بمعدي مصنوعة من الخشب ، تقطع النهر في دقائق لتصل للجانب الآخر وسط أمواج نهر النيل الهادئة التي تؤرجحها يمينا ويسارا، وفي يوم حيث فاض النيل بمياهه فأغرق ما أغرق من الأراضي ، والمحاصيل، والقرى، رغم كل الاحتياطات التي أخذها الفلاح، من

بناء منازله أعلى الجبال والمرتفعات البعيـدة عن نهر النيـل، لينعم بالاستقرار والحماية من خطر الفيضان.

كان السيد شكر الله ذاهبا لعمله، منتظرا عودة العبارة التي ستنقله إلى الضفة الشرقية لنهر النيل، تعثرت قدماه فهوى في النهر، فحاول السباحة والاستغاثة، لكن مع تقدم عمره وضخامة بنيته، لم يقوَ على المعافرة فابتلعته المياه لداخلها دون مرأى أو مسمع من أحد.

أما ست الدار فانتظرته أياما تتلو أياما دون جدوى، وتداولت الأخبار عن غيابه فمنهم من قال أنه غرق، ومنهم من قال إنه سافر إلى مصر لشراء بعض الأغراض، ومنهم من فكر أن يرسل خطابا لأخته التي تقطن بالقاهـرة يسألوها عن حاله وموعـد رجـوعه، فأجابت أخته بالحضور متسائلة عن قصة اختفائه مرتدية الأسود

تنتظـر أن تأخذ نصيبها في المـيراث، ففاجأتها زوجـة أخيها بآلام الوضع، منتظرة إجابة دعوتها بأن يجمعها بزوجها يوم مخاضها.

جاءت السيدة العجوز متباطئة، تحمل على ظهرها انحناءات الزمن واعوجاج عمرها، تساعـدها في الإنجـاب، اقتربت منها متمتمـة بالدعاء، تمسح على رحمها بيديها ليخرج ما به، لكن دون جدوى، فقد عانت العجوز في توليدها ونظرت إليها بعينين ضيقتين دامعتين لما فطنت له من أحـداث، فالحالة متعسـرة ولن تبشر بخير، فإما موتها أو موت الطفل برحمها.

فطنت ست الدار لنظرة العجوز، وقتها علمت أن زوجها قد مات وأن الله استجـاب دعوتها ، فأطلقت صرخـات أشبه بالعويل، صرخات تطلق الطفل من رحمها، وتسر الراقد في مدفن لا تعلمه، أخرجت كل ما بصدرها من كبد على فقد زوجها، اختلطت مع

صرخاتها صرخات أضعف قوة جعلتها تبتسم رغم ألمها، اقتربت العجوز حاملة الموسى في يدها، تقطع به الحبل السري الموصول بها، فتنقطع معها أنفاس السيدة، تاركة طفلها الأول للعراء واليتم، ودموع العجوز التي راحت تنوح وتندب حظ الصغير.

- عيني عليك يا صبي، ما لك أم ولا أبي، عيني عليكي يا صبية ياللي ما تلقي حمية وصدر أم فيه حنية، عيني عليك ياللي راح ولا شفت يوم طعم الأفراح.

دخلت على نواحها السيدات يسألن عن ما يحدث، فوجدن العجوز تحمل طفلا صغيرا ملفوفا بملاءة بيضاء، بينما تمتد ست الدار على فراشها بلا حركة، و أجواء الموت تخيم على المكان.

وفي ذهول استمر للحظات، اقتطعه عويل السيدات لفراق جاراتهن الخلوقة ست الدار، أعقبه قيام العجوز مقتربة من إحدى السيدات الباكيات، تلك السيدة التي ارتدت السواد منذ أن جاءت متسائلة عن سبب اختفاء أخيها وأقنعتها فكرة موته لما فيها من خير تنتظره ليحسن حالها وزوجها ، وتسدد منه ديونها التي اقترضتها لتسافر بحثا عن أخيها الغائب.

أعطت العجوز الطفل لها في حزن، تطلب منها الحفاظ عليه، فقد كانت لا تنجب واعتبرت العجوز أن الطفل أهل لأن يعيش في كنف عمته التي لا تنجب، فهي من دمه، وستكون خير من يحافظ عليه.

– سمي يا نبيهة وخديه في حضنك، ملهوش حد غيرك دلوقتي، ربنا بعتك عشان تربيه، عالم بحالك.

– امه شافته قبل ما تموت؟

فردت العجوز باكيّ، ذاكرة آخر كلمات ست الدار . .

– عيني عليها، كان نفسها تاخده في حضنها، ملحقتش، آخر اللي قالته: "يا ترى أنت ولد ولا صبية، الاتنين سواسية".

ونصحتها بأن تسمي الطفل سواسية، تلك الكلمة التي ذكرتها الأم قبل وفاتها، فلعلها كانت توصي بأن يسمى الطفل بهذا الاسم، ذكرا كان أو أنثى.

ابتسمت نبيلة، واحتضنت الطفل:

– سواسية، هدية ربنا ليا .

وهرولت مسرعة بالطفل خارج المنزل، ناسية أمر أخاها الغائب، وزوجته المتوفية، خائفة أن يلتقطه من يدها أهل والدته ويجبروها على تركه، عائدة إلى مصر حيث يقطنون.

***

5



عادت نبيهة إلى القرية حيث يقع منزل زوجها ، وبين يديها سواسية، تلك الطفلة التي لم يتجاوز عمرها الأسبوع ، وقد فقدت عائلتها ، وساقتها الأقدار أن تعيش غريبة في منزل عمتها وزوجها الذي منع الله عنه رزق الإنجاب والمال، و كذلك حب الناس لغلظته، فقد كان يعمل نجارا ، يشتري الأخشاب ليصنع منها بعض الأثاث المنزلي البسيط كانت صنعته هي، ومسكنه ميراثه من والده، الذي عرف بالشهامة والنبل وحسن الخصال، لكنه لم يتعلم شيئا من هذه الخصال فقد كان مذموما ، يدخل البيوت ليصلح ما بها من أخشاب و أثاث، ويخرج ليتحدث عن حرمتها في الأزقة والمقاهي، وكثيرا ما شنت المشكلات بسبب وجوده، فتشاءمت منه السيدات و أصبحن لا يحببن دخوله عليهن لتصليح أي شيء ،

وفي الضرورة القصوى يتولى الرجل صاحب المنزل اصطحابه إلى أن ينتهي من عمله ويهم خارجا عن البيت، في اختفاء تام لسيدات المنزل، حتى يتجنبن إفضاح عوراتهن وسط الرجال.

عادت نبيهة حامله سواسية بين يديها ، فاستقبلها زوجه بغضب:

- ياما جاب الغراب لأ مه، السير "لي ستاك" مات النهارده ومصر داخله على أيام سودا والإنجليز مش هيسكتوا، وسعد زغلول حط وشه في الأرض بسبب اللي حصل، وانتي جايه تقولي ج ا يبقـ لك بلا أزرق !

كانت نبيهة رغم قوة بنيتها ضعيفة الشخصية أمام زوجها فسرعان ما كان يلطمها ويضربها متى حاولت أن تتحدث بما لا يرغبه أو ناطحته في الحديث، فكانت تؤثر السلام ة وتتركه يتحدث وتحاول

أن تجاريه بما يقوله، علّها تفوز بالسكينة يوما، فعظامها لم تعد تقوى على إلحاق يده وبطشه.

– والله عندك حق يا سي محمد، لكن هنعمل إيه !، البت ملهاش حد، غير ربنا وأنت يا أخويا.

– ودي هنطفحها منين ؟!، انتي معندكيش تفكير يا وليه، ده احنا اللي رايح على قد اللي جاي.

– يا حاج سيبها على ربنا، دي يتيم ة، وأنا أخدت دهب أمها أهو يساعد في رباتها.

ينفرج فاه مبتسما لما قالت، مطالبها لإعطاء الذهب إليه لبيعه.

– دهب، مش تقولي كده يا بوم ة، هاتي الدهب، خلينا نبيعه عشان نجيب لها طفح تطفحه، ولا فاكرة نفسك هترضعيها !

تعطيه لفة من القماش بها بعد القطع الذهبية ثقيلة الوزن، يتحسسها فارها فاه . .

- كردان، حلق، خلخال، غوايش . . . إيه كل ده يا بنت الرفدي، أمك كانت فاتحة صاغة لوحدها ! !

تضحك نبيهة ، وتحكي له عن عز أخيها وما تركه ، وما سيقسم عليها وعلى إخوتها الذكور، فيرد عليها متهكما:

- ومن امتى يا أذكى إخواتك كانت الحريم بتورث، بكرا تلاقي إخواتك ناهبين حقك.

تحزن نبيهة، مؤكدة لنفسها أن لعل الله يمن عليها بعطف إخوتها، فيهدوها شيئا مما تركه أخوها الأكبر.

يخرج زوجها بصوته المحشرج من دخان الشيشة، بعد أن بصق على الأرض ما وقف بحلقه، وفي يده لفة الذهب لبيعها، بينما تجلس نبيهة وفي يدها الطفلة، باكية متضرعة جوعا.

تتذكر نبيهة أن إحدى جاراتها حديثة الولادة، ولابد وأنها تُرضع صغيرها، فتلف طرحتها على رأسها وتحمل سواسية ذاهبة إلى جارتها الست أم أحمد، تحكي لها حكاية الطفلة وتطلب منها أن ترضعها مع ابنها.

تسري الشفقة في صدر أم أحمد، فتسيل لبنا يشبع الصغيرة، تعود نبيهة وقد أُشبعت الطفلة، منتظرة بيع المصاغ وهبوب الخير وطعام الطفلة، لكن زوجها جاء لا يحمل شيئًا سوى بعض الأدخنة التي سيرصها في جوزته، فسألته غاضبة:

– فين أكل البت؟!، أنت بعت الدهب عشان تجيب دخان!

فلطم خدها وسحبها من شعرها مخرجا إياها من الدار ، وسط أعين أهل الحي، مطالبا إياها أن تأخذ الطفلة وتعود إلى أهلها، علَّها تجد المأوى، لكن بعد توسلات ودموع وبكاء من الكبيرة والصغيرة وتنهدات أهل الحي ودعواتهم للصلح ، عادت نبيهة إلى منزلها ، مكسورة العنق، مقصوفة اللسان، تختبئ بجوار الطفلة، محتبسة البكاء.

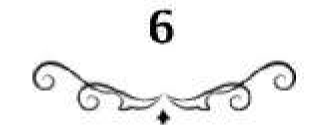
بينما هو يخلع جلبابه، ويجلس يشترف أدخنته التي أعدها محلاة بقطع من الحشيش ليدخل البهجة في نفسه التي باتت تراوده بأن يأتي زوجته ليسكب بها ما به من ألم، فينام ليله منتشيا لا يبالي ما قد يكون سبَّبه من ألم في نفسها ، فيفضي إليها دون أن يكترث حزنها إزاء فعلته، وتفضي إليه لتنعم برضا كاذب يشعرها بأنوثتها للحظات، تتوق بعدها إلى نوم عميق ينسيها آلامها .

هكذا اعتادت أن تجاريه لتتجنب غلظته، علّها تظفر يوم ا بالسلام والأمان الذي نشدت فلم تجد ه سوى في أحلامها، في كنف رجل عرف بأنانيته وتفضيله لنفسه دون غيره، فقد استولى على ثر وتها التي جاءت بها هاربة من بلدها، متحججة بأنها ستساعدها على معيشة الطفلة، بينما الطفلة لم تحصل إلا على بضع قطرات من اللبن الراكد في ثدي جارتهم أم أحمد، بعد توسلات وحكايات نبيهة التي تفطر القلب.





6



في منزل نبية يجلس زوجها وأمامه رجلان أسمران البشرة، يرتديان جلابيبهما البيضاء وعمامة، وعلى مقربة منهما تجلس نبيهة، بينما تجلس سواسية ابنة الست سنوات خلف أحد الأبواب، تتلصص سامعة ما يقال، تدرك بعض الأسرار.

فتسمعهم يتحدثون عن ذلك الميراث الذي تمتلكه في أسوان، وكيف أن والدها حجبهم من أن يرثوا بالتنازل وبيع ما يملكه لست الدار أم سواسية، تسمعهم يقذفونها بالسباب والشتائم ويتهمون والدها بالجنون، فمنذ متى والمرأة تورّث أو تباع لها الممتلكات، وكيف له أن يفضل إخوة زوجته على إخوته، فها هو أخو ست الدار أعاد فتح المقهي، ويديره ويرفض بيعه، ونقل إخوته إلى منزل أخيهم، يلعنون اليوم الذي أنجبت فيه ست بنتا، فلو كانت ذكرا ما آلت

الثروة إلى أهل أمها، وكانوا تمكنوا من الميراث قدر استطاعتهم إلى حين يكبر فيه الفتى ويستلم ميراثه أو ما بقي منه، ووقتها سيكون الأعمام أقرب من أهل الرحم لكن القدر جعلها أنثى ليستغل ميراث أخيهم آخرون، كانوا لا يملكون الفتات ولا يقدرون على الحصول على قوت يومهم، أما الآن فقد امتلكوا بيتا ومقهى يديرونه ، ويكسبون منه ما يغنيهم عن السؤال، أما الأرض فقد تركها لهم أخوهم ليرثوها من بعده.

كانت سواسية تسمعهم ولا تفهم لماذا يكرهونها كل هذا الكره، هل لكونها أنثى؟!

يضع الرجل يده في سيالة الجلباب ويخرج لفة من ورق الجرائد، ويعطيها لزوج نبيهة مفهما إياه في تذمر أن هذا هو ميراثها من أخيها

المتوفى، فيأخذها الحاج محمد متلهفا، بينما تجلس نبيهة مبتسمة في لحظات من الاستعلاء.

- ده نصيب نبية من ورث أخوها في الأرض.

فيفتحها محمد، ولكن المبلغ لم يعجبه.

- ده بس نصيبها من ال 100 فدان !!

- يا حاج محمد ، احمد ربنا، إننا جينا وجبنا لكم حاج ة عشان ظروفكم.

فيرتفع صوت الحاج محمد متحشرجا:

- بس ده مش عدل ربنا يا حاج سلام!

فتتمتم نبية في رضوخ:

- والله أنا ما عايزة حاجة، كفاتي دخلتكم عليا بالخير كله.

فينهرها زوجها أمام إخوتها:

- اخرسي انتي!

فيقوم عليها أخوها يضربها أمام زوجه..

- لما الرجالة تتكلم، الحريم تسكت!

فتجري نبيهة حيث تجلس سواسية باكية، فتقترب منها سواسية تواسيها، فتنهرها وتطلب منها أن تأتي لها باحتياجات المنزل من السوق، فتخرج سواسية ممسكة بحقيبة السوق لتشتري ما ينقص البيت، من فجل وجرجير وعدس وفول، تلك الأطعمة التي اعتادت أن تأكلها في منزل عمتها، وما أن يراها زوج عمتها خارجة فيطالبها بشراء الدخان له، ثم يعود فيتحدث لإخوتها ..

- فين حق العيلة الصغيرة؟!

فيجيبه غاضبا:

– ما كفايتي اللي أنت لهفته من ورا صيغ ة أمها ، واتجدعن كده وروح اطلب نصيبها من أهل امها بدل ما أنت بتطلبه مننا ، دوول كوشوا على كل حاجة.

فيهز رأسه موافقا ، ويعكف على عد الأموال التي بين يديه.

– منين بس، ده يا دوب الجاي على قد اللي رايح.

فيشعر الأخ الأكبر أن مهمته قد انتهت ، وأنه قد أقام الشرع وأعطى حق أخته في ميراثها ، فهب واقفا ينوي الرحيل وتبعه أخوه الأصغر، وهمس في أذن الحاج محمد بأن يكف يده عن أخته، فقد أصابها الهزل ولم تعد تقو ى على بطشه، فيرد عليه الحاج محمد بصوت غليظ معاتبا:

– أنت هتعلمني أعامل أهل بيتي إزاي؟ ! ، ده أنا مش حارمها من حاجة ، مش كفايتي باقي عليها وهي أرض بور مبتخلفش !

ثم ينادي على نبية ليسألها، فتجري إليه نبية مسرعة تلبي نداءه.

- نبية، انتي بتشتكيني لإخواتك؟!

- أنا، أبدا والله يا حاج محمد، ده أنا في خير ونعمة.

فيبتسم الحاج محمد، ويهم أخوها خارجا، فتقف هي خلفه تهلل له مجيئه، ناسية ما قد فعله بها من لحظات:

- توصل بالسلامة يا أخويا، ربنا ما يقطع دخلتك علينا.

تعود سواسية متعجبة من أمر عمتها التي تدعو بالخير لمن ضربها وأبكاها، حاملة بيدها الأطعمة من السوق وفي يدها الدخان الذي طلبه زوج عمتها، فتدخل المنزل دون أن يسلم عليها أحد من الخارجين.

تضع ما شرت أمام طرنبة المياه، تغسله وتضعه في أطباق، وتهم بتسخين العيش في الفرن الذي بنته عمتها لخبز العيش، وتصعد فوق

المنزل وفي يدها طبقين، تقترب من الزلعة الفخارتي وتفتحها وتضع في طبق منهما المش، ولم تنس أن تأكل بقطعة العيش المخفاة في كمها قطعة من قشر البرتقال الذي تضعه عمتها في زلعة المش، وتمسك بالطبق الآخر لتضع به العسل، ثم تلحس يديها وبضع قطرات من العسل وتنزل في عجل.

ترص الأطباق على "الطبلية" فيجلس إليها الحاج محمد وزوجته، بينما تضع نبيهة قطعة جبن صغيرة في طبق منفصل لسواسية، لتأكلها بعيدا قرب الباب، هكذا اعتادت سواسية أن تعامل، أن يُسكب لها الطعام لتأكله في عزلة في أحد أرجاء المنزل.

أنهت سواسية طعامها دون أن تطلب المزيد، وقامت لتلملم أعباء المنزل، فتنظف الدار وترش المياه أمامها، إلى أن ينتهي زوج عمتها

من الطعام، فتلملم بقايا الطعام وترفع الأطباق لغسلها ، وتجهز الفحم لزوج عمتها لإشعال جوزته.

اعتاد زوج عمتها على همتها ، فقد كانت قوية البنية، لا تكل من العمل، عكس زوجته التي أصابها الوهــن، فبدأ يوكِّل إليها بعض المهام، فتنظف ورشته وترش حولها المياه وترص الأخشاب، وتجمع نشارة الخشب في طبق مستقل، وترص أدوات النجارة على الحائط ليسهل إليه الوصول لها .

تعلمت منه كيف يصنع الأريكة والطبلية، فباتت لعبتها في صغرها ، فعكفت على جمع الأخشاب المكسورة الملقاة في طريقها إلى السوق، لتخبئهم على سطــح المنزل، وتسـرق المسامـير وبعض الأدوات، فصنعت لها أريكة صغيرة على سطح المنزل، وكانت ترى الأطفال في سنها يصنعون الأرجوحات من أحبال الغسيل والمخدات القطنية



فأرادت أن تتميز عليهم فصنعتها من تلك الأريكة وربطتها بالأحبال وعلقتها على عمودين قريبين أعلى المنزل، مما أثار غيرة بعض الأطفال، الذين وشوا بها إلى زوج عمتها فصعد ليرى ما فعلته، فضربها ضربا مبرحا لسرقتها مقتنياته واللعب بها ، وحذرها من الاقتراب منها ثانية.

لكنها ظلت متمسكة بلعبتها ، متعتها الوحيدة مع أصدقائها المقربين متى تكون عمتها في صحبة السيدات يتبادلن الحديث، ويكون زوج عمتها في المقهي أو جالسا في ورشته منتظرا الرزق.

ذيع صيتها في القرية بقدرتها على تصليح الأخشاب، ففضلت السيدات دخولها على دخول زوج عمتها ، فباتت تطلبها السيدات لتصليح بعض الأخشاب والأبواب، نظير بعض المليمات، أو وجبة لتأكلها مع أطفالهن.

كانت تشعر بالسعادة إزاء ذلك، فقد كانت تقتات رزقها بيديها، ولكنها كانت تخفي الأمر على عمتها، ومن ثم زوج عمتها .

انتشر الخبر في القرية كزخات مطر تملأ الأرجاء، فعلم زوج عمتها مما جعله ينظر لها بعين الصبي الذي يمكن أن يساعده ويكون سببا في الرزق، فضمها لأ دواته، وعلمها أساسيات علم النجارة، فارتاد الزبائن ورشته، مما سرَّ قلبه فبدأ يتعزز ويطلب ثمنا أعلى مما كان يطلبه في ظل احتياج أهل القرية لسواسية لكي تنهي لهم ما يحتاج للصياق، وكان الحاج محمد هو من يحاسب ويتفاوض في الأسعار، وسواسية ما هي إلا مساعد يحمل عدته و يذهب لمنازل الزبائن لينفذ لهم ما يطلبون .

فتجد واحدة تريد أن تبني عشة لتربية الطيور، وآخر يطلب منها فك سرير وتركيبه في حجرة موازية، ومنهم من يطلب منها تصليح

باب أو تشبيت مسمارا في كرسي، فزاد الرزق في يد الحاج محمد، وزادت غيرة نبيهة من ابنة أخيها، فظلت تضربها وتعنفها وتأمرها بواجبات منزلية، فلم تجد سواسية بدا إلا أن تنفذ رغما عنها طلباتها، فأصبحت تستيقظ مع أذان الفجر لتشعل الفرن، وتعجن العيش وتخبزه، وتضعه في المشنات وعليه قطعة من القماش الأبيض تحميه من الحشرات والذباب، ثم تذهب لتملأ "الطشت"، وتلملم الملابس المتسخة لغسلها مع بنات الحي على الترعة، وسط ضحكاتهن وكلامهن الأنثوي الذي فتح مداركها على الزواج والإنجاب.

ثم تعود بعد أن جفت الملابس، لتنظف المنزل وتطبخ الطعام، إلى أن يستيقظ الحاج محمد مع أذان الظهر، فيأخذها معه إلى الورشة التي تبدأ بتنظيفها ورص الأخشاب ورش المياه، ومن ثم انتظار

الزبائن والعملاء حتى تذهب معهم لإصلاح ما يرغبون إصلاحه، كانت تفعل كل ذلك دون أن تأكل، أو أن تطلب ثمنا لما تقوم به، ولأنها لا تطلب نسري زوج عمتها أن لها احتياجات لابد وأن تتوفر لها، فلا أحد يطعم، ولا أحد يقدم الحلوى، والمال قد أخذه زوج عمتها، وعمتها تضربها وتمنع عنها الطعام غيرة منها، وإن جاعت يكون غذاؤها قطعة من الجبن تأكلها في أحد الأركان ولا يحق لها أن تنظر ماذا يأكل أهل الدار، وإن نظرت فلها الفتات بعد أن ينتهيا من الطعام، فتارة تجد بعض الدهن المنزوع من اللحم فتضعه في لقمة وتأكله، وتارة أخرى قليل من اللحوم قد نُسيت في عظام الدجاج فتأكله، بينما الأطفال في عمرها يلعبون ويأكلون الحلوى، وتهدهدهم أمهاتهم، أما هي فلُقّى بالنهار، وذكر في المساء، دون أن تجد من يعطف عليها أو يطعمها، حتى صنعتها التي أطعمتها يوما، لم تعـد

تطعمها، فالمال كله في يد زوج عمتها، ولا يحق لها أن تطالبه بشيء وإلا كان جزاؤها الضرب.

فأخذت جانبا من الأطفال، تنظر لهم من بعيد بعين حاقدة، ونفس رافضة ما تقوم به، وحلم صنعته ألسنة البنات على الترعة، متطلعات للزواج من ذلك الفارس الذي سيغير حياتهن، وسيقدم لهن الحرية على أطباق من الألومنيوم يغسلونها في ماء الترعة، ليحضرن بها العشاء ليلا فيظفرن بليلة تشعل أجسادهن.

جمعت الأواني وأخفت بينها أحلام الفتيات في ليلة تشعل جسدها مع فارس يحارب ويدفع الأموال ليخلق لها الحرية المنشودة، ورفعتها فوق رأسها، وحلقت بها وسط الحقول الخضراء عائدة إلى منزلها، وما إن دخلت منزلها ألقتها في حجر عمتها، تحكي لها أحلامها

وأمنياتها في الزواج، وما تردده الفتيات وهن يغسلن الصحون ع لى الترعة.

أخـذت عمتها كل كلامها بابتسـامة يتضمنها خـوف، خوف من شبابها مقابل عجزها، وصحتها مقابل مرضها، خوف على زوجها من أن تزيغ عيناه نحو اليمامة البيضاء التي ترفرف أمامه في المنزل والعمـل، تلك اليمـامة التي جلبت له الرزق، و أعادت له مكانتـه وسط القرية، فوجدت أن قرار ختانها قد يقلل من رغبتها، ويهدئ من عنفوانها، فالختان يحفظ المر أة كما قالت التقاليـد، وبالختان ستحتفظ نبيهة بزوجها من تلك اليمامة النابضة بالحياة.

أخـذتها في غفلة من يدها ، تطلـب منها مرافقتها لشـــراء بعض احتياجات المنزل، وطالبتها بالإمساك بتلك الدجاج ة التي أخذتها من عشتها .

تعجبت سواسية لماذا تمسك الدجاج ة إلى السوق، لكن عمتها أجابتها مسرع ة بأنها للمقايضة لبعض المنتجات التي يحتاجها المنزل.

وقفت نبيهة أمام منزل أم محروس، تلك المرأة التي تقوم بتوليد النساء، وتذهب إليها الفتيات ممسكات بالدجاج فيخرجن باكيات، رغم الأفراح والشربات الذي يوزع يومها، لم تفهم سواسية ماذا تفعل تلك السيدة للفتيات، ولماذا يخرجن من عندها باكيات، رغم فرحة أمهاتهن، ولماذا يتزوج بعضهن بعد زيارتها بشهور.

دخلت نبيهة وخلفها سواسية فقدمت نبيهة لأم محروس الدجاجة، ففرحت أم محروس وباركت، وتمتمت بكلمات لم تسمعها سواسية.

- ما شاء الله، ما شاء الله، كبرت سواسية وجايه تطاهر!

- همتك معانا يا أم محروس، وعايزاكي تطاهريها سوداني.

تنظر لها أم محروس في دهشة – فمن المتعارف عليه في المجتمع الأسواني أن لديهم ثلاثة أنواع من الختان، أصعبهم الختان السوداني، حيث يقوم بتشويه العضو الأنثوي بزيادة نسبة القطعة المزالة في الختان حيث تشمل قطع البظر وجزء من الشفرين الخارجين ، وجزء آخر من الشفرين الداخلين، وإغلاق كامل للفتحة التناسلية، وترك فتحة صغيرة للتبول، وقد يتبع هذه العملية نزيف حاد للمرأة يؤدي للوفاة أحيانا لحظة الختان، ومشاكل عديدة طوال فترة حياة الأنثى، حيث الصعوبة والمعاناة عند الزواج والإنجاب.

تمصمص أم محروس شفتيها متعجبة لطلب نبيهة ولكن ليس في يدها شيء سوى أن توافقها الرأي، لتظفر بتلك الدجاجـــة السمينة التي تحملها سواسية.

– سوداني يا نبيهة!، ده صعب أوي عليها، البت لسه صغيرة.

- هنعمل إيه يا أم محروس، عاداتنا ولازم ننفذها .

توافقها أم محروس بإيماءة وتمسك بيدها لتدخلها إلى حجرة داخلية وتطلب من بناتها المساعـدة، تخاف سواسية وتدخل معهم دون مقاومة ، ونظرة خوف تملأ عينيها ، وبقلب يرتجف، بينما تقف نبيهة على باب الغرفة تخرج سكينها وتذبح الدجاجة، فتصرخ سواسية ويعلو بكـاؤها ، لتبتسم نبيهة فتظهر أسنانها البيضاء المرصوصـة بلا فوارق .



7



أدركت سواسية أن آلامها كانت بسبب ما باحت به من أحلام، فتعلمت أ ن لا تحكي ما يدور بخاطـرها، وأن تكـن أحلامـها وأفكارها في قلبها وتغلق عليها، فازداد صمتها وسط الفتيات على الترعة، وحينما تذهب لأعمال الصيانة الخشبية في المنازل، وعند الحديث لعمتها، وزوج عمته.

كبرت سواسية وفرع طولها لكن جسدها ظل نحيفا ممصوصا خ الي من معالم الأنوثة، فصدرها لم ينتفخ كباقي الفتيات، مما أشعل الغـيرة في نفسـها، وزاد من انطوائيتـها مع أحاديث الفتيات وضحكاته ـن حول عدد من الأمور النسائية، فتتحدث إحداه ن عن آلام الدورة الشهرية وطرق التخلص منها، وتتباه ى أخرى بعدد الرجال الذين

جاؤوا لخطبتها، وثالث تروي ما تعرفه عن الزواج ، وعن لذة ليلة الدخلة، وهوس الإنجاب والرغبة الجنسية.

تستمع سواسية إلى حديثهن بشغف لا تظهره، بل إنها كانت تنتظر تجمعاتهن لتستمع لتلك الأحاديث لكنها كانت لا تشاركهن الحديث، وحينما تهم إحداهن بسؤالها كانت تنهرها وتوبخها ، وتتهمها بانعدام أخلاقها .

كانت قد أتمت عامها الثاني عشر لكنها لم تشعر بتلك الآلام الشهرية كباقي الفتيات، كان حديثهن يشعرها بنقص ما بجسدها ، راحت تفتش عنه ليلا بعد أن تطفئ الأضواء ويخلد الجميع إلى النوم، فتغلق الباب على نفسها بإحكام وتخرج مرآتها الصغيرة المكسورة وتضعها فوق عتبة شباك حجرتها ، لتقف المرآة، وتقف هي أمامها

منتصبٍ عارٍ، تتحسس جسدها والتغيرات التي طرأت عليه ، وتسأله متى سيحدث لها ما حدث لمثيلاتها من البنات.

تقرّب يدها من ثدييها فتشعر ببعض من النشوة، فتسحب يدها إلى أسفل، حيث يكمن بيت اللؤلؤ، فتداعبه بإصبعها فتزداد نشوتها .

تحلم بذلك الفتى القابع في أحد المنازل المجاورة، الذي سيأتي يوما ليخلصها من ذلك البيت البغيض ، ذاهبا بها إلى منزله لتنعم بالعيش جواره، وتنجب منه أطفالا تسقيهم ما ورثته من حنان أمها التي لم تره ا .

تنتشي سواسية وقصص الفتيات تنخر فيها ، توقظ الأنثى التي تكمن بداخلها وتشعل بها النار فتطفئها بيديها وتنام ليلتها منتعشة ، منتظرة الغد بروح مشرقة.

وفي الصباح تبدأ يومها بالاستحمام والعجن والخبز وغسل الصحون، وتنظيف المنزل وشراء احتياجات المنزل من السوق ، وتنفذ أوامر عمتها التي لا تطاق وتتجنب الحديث معها، وتلك النظرة الشيطانية الحاقدة المنبعثة من أعين عمتها، ثم تخرج لمساعدة زوج عمتها بورشة النجارة، وتذهب حاملة أدوات الصيانة لمنازل أهل القرية، تبني لهم العشش وتصلح الأرائك والكراسي والأسرة، وتعود مساء إلى المنزل تتناول بعض اللقيمات وتدخل حجرتها لتنتشي وتنام ملتحفة بأحلام الإناث.

وفي يوم جاء تلغراف وهي تغسل الخضروات أمام المنزل، فاستلمته وسلمته لزوج عمتها، فذكر أن أحد إخوة نبيهة مريض في أسوان ولابد من سفرها لرؤيته قبل الوفاة، فبكت نبيهة ونحبت وطلبت من سواسية تجهيز احتياجاتهما للسفر.



رقصت عينا سواسية فرحة لخبر سفرها مع عمتها حيث ولدت، وسكن أهلها ومات والديها ، لكن سرعـان ما خمدت فرحتها بعد رفض زوج عمتها اصطحـابها معها في رحلتها، وطلبه أن تترك سواسية لتراعي احتياجاته وتساعـده في أعماله، فوافقت نبيهة وتركتها وسافرت حاملة بين حقائبها غيرتها من سواسية، وخوفها من أن تسرق منها زوجها .

مكثت سواسية تخدم زوج عمتها في المنزل والورشـة، وبعد أن تطمئن من إنجاز كل مهامها ، تدخل حجرتها لتحدث جسدها بما تشتهيه، وفي يوم اعتادت أن تفعل ما تفعل، فتح زوج عمتها الباب عليها ليجدها عارية، فأثار جسدها فحولته، ولم تشعرها نشوتها باقترابه منها ، فأصبح ملاصقا لها ، يتحسسـها بشفتيه، فانتفضت هاربة من بين يديه تستـتر جسدها بشعرها الطويل المنسدل على

خصرها ، فتجمل جسدها أكثر وازدادت فتنته، فاقترب منها يطمئنها، وأزاح شعرها بيديه فكشف عن جسدها ، وأشعل لهيبها بقبل تحيط جسدها ، فاستسلمت له راضخ ة ليقذف ما به من ألم دون أن يفض بكارتها ، وبعد أن قام عنها نزل بسوط العذاب عليها يضربها ضربا مبرحا ، ويهشم رأسها ويتوعدها بالعذاب إن نطقت شيئا عما صار، ثم لملم أشياءه وتركها ملقا ة بين عبقه ودما ئها ، ودموع تسكن الأحداق، وصمت سجين لا يقوى على الإفصاح.

لملمت جسدها المنثور بين أركان الغرفة، وقامت لتستر جسدها بملاءة كانت تتشبث بها قبل دقائق ولم تنقذها ، ورفعت شعرها بيديها وربطته بمنديلها ، وراحت تمسح دما ءها ، وتطيب جراحها التي قذفها بها زوج عمتها بعد أن اعتدى عليها .

مر الليل على مهل فذرفها الكد والعصيان، وبعين لم تذق للنوم طعما قامت منتفضة، لتستحم وصعدت فوق المنزل قبل شروق الشمس تخلط طحينها بالماء لتعجن الخبز. كانت تعجنه بكل ما بها من غل وقوة، فتضع يدها داخل العجين وتسحبه إلى أعلى، وتنزل به بكل قوة في طبق العجين، فأقلق ذلك زوج عمتها، فقام ليبحث عن ذلك الصوت الذي سيهد السقف على رأسه.

فوجدها هي من تجلس وتعجن بكل قواها، فتمتم بكلمات ودعاء عليها، ودون جواب منها سوى نظرتها الحادة التي كادت أن تمزقه، تركها وعاد ليستكمل نومه:

– ربنا يهد صحتك يا بعيدة، هتهدي البيت فوق راسنا.

نظرت له سواسية نظرة استعلاء يتبعها حقد، والدموع تتساقط من عينيها. تزيح طبق العجين جانبا ويحتد بكاؤها، لتخرج إلى النافذة

تستنشق بعضا من هواء الفجر المشرق ، علّه يداوي قلبها العليل،

فتجد شابا يقف في نافذته، ينظر إليها في حزن، فتحمر وجهها

وتمسح دموعها، وتدخل مسرعة وعلى شفتها ابتسامة أمل.

عادت لعجن عجينها وقد بث فيها الأمل، لتطرح الخبز وتدفعه إلى

الفرن، فيرتفع العجين ويتحول خبزا، وترتفع هي في مقعدها لتراقب

الشاب دون أن يراها، تنهي خبيزها وتلملم الصحون، وتحملهم على

رأسها ذاهبة إلى الترعة لتغسلهم.

لكن وقع أقدام أوقفها وخفق له قلبها، وأنساها آلامها وجراحها التي

أدمتها ليلا، وكأن الله استجاب لدعائها فأرسل لها الفارس الذي

ستأمنه على نفسها.

يقف أمامها رقيق الأعين، بوجهه الصبوح البشوش، ويوقفها بطلته

البهية الطويلة التي تمتلئ بالرجولة والحيوية

لمعت عيناها ونظرت له في استحياء، جمعت بعده قواها لتسأله:

– في حاجة يا حضرت، أنت تعرفني؟!

فيرد في حنان فجَّر أوثتها، وصبغ وجهها بالحمرة:

– أعرفك من قبل ما أشوفك، انتي اللي كنت بدور عليها طول عمري.

شعرت بارتباك لم يمكنها من الاحتفاظ بتوازن الأشياء على رأسها، فسقطت على الأرض، فمد يده ليساعدها في انتشال ما وقع، ورفعه على رأسها، وفي ارتباك شديد أعادت اتزانهما وسارت إلى الترعة، ولاحظت أنه يتبعها خلال سيرها لكنها لم تعره أي اهتمام، فقد تخسره إذا رأتها إحدى الفتيات.

سارت في سكون، الحمرة لا تغادر وجهها، فوصلت إلى الترعة وركنت الأطباق والأواني، ونزلت إلى الترعة تنتشل منها بعض

الرمال التي ستستخدمها في الغسيل فتبلل جسدها والتصقت عليها ملابسها، فأظهرت تفاصيلها. نظرت على الشاطئ فوجدته يقف خلف أحد الأشجار ينظر إليها، فابتسمت وأبطأت في انتشال الرمال، ثم خرجت وفي يدها علبة مملوءة برمال الترعة، فجلست على الشاطئ، وبدأت بغسيل الأطباق. غسلتها هذه المرة ببطء أكثر متعمد، وبمهارة أضاءت معدنها، وجعلته كالمرآة.

كل هذا وهي بين اللحظة والأخرى تلتفت حولها، تنظر إلى الشاب. أنهت غسيلها وقامت بعد أن جفف الهواء ملابسها، ورفعت الأواني على رأسها بعد أن ارتدت عمامتها.

وعاد الشاب يسير خلفها في هدوء، فوقفت واستدارت إليه متسائلة:

- أنت لسه هنا يا ابن الناس؟ أنت ابن مين؟!

أنا أول مرة أشوفك!

فأجابها الشاب مسرعا:

- أنا مش من هنا ، أنا من المنيا . أنا ابن أخو الحـاج عباس، وجيت هنا عشان أدوّر على شغل.

فابتسمت ابتسامة عريضة . .

- الحاج عباس الحلاق اللي ساكن قصادنا؟!

فأومأ برأسه مؤكدا، فهزت رأسها وسارت إلى البيت وهو خلفها يلاحقها .

***

8



بذر الشاب شرارة الحب في قلبها، أشرق في روحها شمس الحياة، فأحبته. باتت أكثر نشاطا، تقوم بكل واجباتها في سعادة، سامحت كل من ظلمها، آملة في مستقبل أفضـــل مع من أحبت، فارسها المغوار الذي جاء به القدر لينتشلها من ذلك الوحـل. فكّرت مرارا وتكـرارا أن تصارحه بما فعله بها زوج عمتـها، لكن خوفها من فقدانه جعلها تخفي ذلك السر بداخلها.

كانت تقابله كل يوم وهي في طريقها إلى الترعـــة، اطمأنت عندما وجدته يعمل بمحل الحلاقة الخاص بعمه الحاج عباس، وكان يحـاول إيقافها ليتحدث معها لكنها كانت تمنــع، وتسير في طريقها تحلّق

بجناحيها، تكاد ترتفع عن الأرض، وفي يوم ألقت له منديلها يحتفظ به.

أصبحت أكثر مرحا، تحكي مع الفتيات عن الحب والزواج، وتسألهن عما يحدث خلف الأبواب المغلقة، فيشتعل قلبها بالحنين. كانت قد تخلت عن عادتها السرية بعد أن كشفها زوج عمتها، واستباح حرمتها، لكنها لم تستطع التخلي عن شعورها في الاحتياج لرجل يحميها، يهبها قلبه وجسده، وكان هو ذلك الرجل الذي تمنت أن تهبه نفسها، وأن تعيش معه حكايات الفتيات، فيكون لها القوة والحريق

تلصصت على اسمه فعلمت أنه يدعى أحمد. حفظت الاسم بقلبها وراحت تبوح بهللأخشاب فترسم عليها قلوبا، فلمحها زوج عمتها فشعر بأنها رسائل توجهها له ليعيد ما فعله معها يوما، جلس

منتفخا في مقعـده، وأمرها بتجهيز الجوزة له، ووضع الفحم الساخن على الحجر، ففعلت دون تردد، فازداد شموخه، وانتصب شاربـه الذي راح يداعبه بإصبعيه، وهو يتفحص جسدها بعينيه.

فكر في أي مكان يمكن أن يطأها ثانيــة؟! وفي المنزل تجلس نبيهة كوجه البوم، تلك المرأة التي تجاوزت الأربعين دون أن تنجب له طفلا يسنده في عجـزه، وأصبح الالتقاء بها واجب لا يشعره بالنشوة، أما سواسية فقد أشعلت في قلبـه الحيـــاة مثلما أشعـل هو في قلبها الأنوثة.

جاءت له فكرة أن يرسلها إلى مخزن الأخشـــاب لتأتي ببعض منها، وأن يذهـب خلفها، فما من عامـل في المخزن، والمخزن مهجـــور لا يوجد به أية أخشاب، وهي لا تعلم تلك الخطة، ورسم في مخيلته

أنها ستنتشي فرحا عندما تدخل ولم تجد شيئًا، فستقوم بما قامت به من قبل لتوقظ فحولته.

أرسلها إلى المخزن بحجة أن تأتي ببعض منها، فذهبت سواسية ولم تجد شيئًا، بث في قلبها الخوف، وكادت أن تخرج إلى أن وجدته أمامها، ينظر إليها بشفتين ضاحكتين غليظتين، فأمسكت بملابسها تضمها خوفا، فظن أنها تضيقها لتبرز جمال جسدها، فهمَّ بها، دون أن يعي لصراخها ورفضها له، وبعد أن أفضى بها، همَّ عليها بالضرب وسوط العذاب، فخرجت هاربة ترتمي بين أحضان حبيبها.

خرجت والدموع تكسو جبينها، وشعرها المتقطع غير المصفف يرفرف خلفها. وقفت أمام دكان الحاج عباس تبحث عن أحمد،

فوجدها الحاج عباس، فخرج يسألها عما بها وعن ماذا تبحث، لكنها لم تسمعه فظنت أنه في المنزل أو لعله يسير في السوق. أخذتها قدماها إلى الترعة حيث كان يقف خلف الشجرة، علَّها تتكئ على تلك الشجرة التي شهدت حبها.

وما أن وصلت إلى هناك وجدته يجلس تحتها يستظل بظلها، فهمَّت مسرعة تجاهه بكل ما بها من قوة، وحينما اقتربت منه لم تقوى على هول ما رأت، فوقعت مغشي عليها، محطمة الآمال، فقد كان يجلس مع إحدى الفتيات التي تجلس معها على الترعة، تلك الفتاة التي صرَّحت باقتراب يوم زفافها على من أحبت، ونسي البنات سؤالها عمن تحب.

قد كان حبيبها هو نفس من أحبته سواسية، وبعدما أغشي عليها أثر تلك الصدمة، وحينما ساعدتها الفتاة على الإفاقة، سألتها

سواسية من يكون ذلك الشاب، ف أجابتها على الفور، بأنه أحمد "ابن أخو" الحاج عباس، وقد تقدم لخطبتها من أيام، وسيكتب كتابها بعد شهر ، فابتلعت سواسية ريقها، واصطحبتها الفتا ة إلى المنزل، فلحقتها عمتها، متعجبة مما لحق بها .

– إيه اللي حصل يا سواسية؟، مالك في إيه؟ !

دخلت سواسية إلى حجرتها دون أن ترد عليها، وإذا بزوج عمتها قادما منتفخا ومنتشيا، يسأل عنها ، فتلاحقه نبية تروي له ما لحق بسواسية، فيجيبها بعلمه، ويذكر لها أنه من فعل ذلك بها ، فتعجبت نبيهة متسائلة عن السبب، فذكر بكل هدوء، وعدم مبالاة:

– أنا بحبها ، وهي مانعة نفسها عني، أنا هتجوزها .

خبطت نبيهة على صدرها وراحت تلطم وتبكي، فصفعـها على وجهها ، وأمرها أن تدخل لتخبرها بموعد زفافها عليه.



انتشر الخبر في القرية، وسط صراخ نبيهة وضربها لسواسية، ورضوخها لزوجها، فراحت تجهز سواسية للزواج من زوجها .

أما سواسية فلم تكن تريده، ولم تعد تحب جسدها، فشعرت بأن جسدها وقلبها خطيئة حباها الله بها ليعذبها .

كانت سواسية معتادة أن تذهب لتشتري احتياجات المنزل من السوق، وعندما تعود تحاسبها عمتها في أسعار ما اشترت به، ولتأخذ منها المتبقي من المال، فلا يصح أن يكون لسواسية مالا، ولو بضع مليمات، فمثلها لا يحق لها أن تطلب شيئًا .

وفي يوم ذهبت لشراء بعض الاحتياجات، وحينما عادت ادّعت أنها قد غفلت وأخطأت في حساب البائع، وعليها أن تعود إليه لتعيد محاسبته. وقتها خرجت سواسية ولم تعد، فرحت عمتها

واستكانت، بينما ظل زوج عمتها يسأل عنها في كل منازل القرية، وظل يضرب نبيهة ظنا منه أنها من أخفتها، وكعادة نبيهة تتحمل ويتدخل أهل القرية لإصلاحها، ومرت الأيام على هذا النهج دون عودة لسواسية.



***

9



اختتمت الحاجة ليلى حديثها، وتنهدت ثم قالت إنه بعد هروبها انتشرت قصتها في القرية، وعلم الجميع حكايتها وكل أسرارها، حيث كانت حديث القرية لسنوات وسنوات، ففي مجتمع اتنا تفضح الأسرار، وتنتشر خصوصا إذا تبعها عيبا أو فضيحة، فكان في قصة هروب سواسية الفضيحة التي تجعلها تذكر وتعاد على مر السنوات ولا تسقط من الذاكرة، فلا سيرة غير سيرتها وما فعلته، وتحذيرات الأمهات من اتباع ما سلكته وإلا سيكون الجزاء القتل، وتشددت الأمهات في تصرفات بناتهن ، وخوفهن من الوقوع فيما اقترفته سواسية.

وحينما جاءت إلى أسوان مع زوجها، حيث أنه يعمل في بناء السد العالي، وفي يوم كانت تجول فيه في السوق ، وجدت سواسية وقد

تحولت ذكرا واقفا أمام أحد المقاهي في السوق، فتعجبت لمظهره، وراحت تزادي عليه باسمها لتؤكد لنفسها أنه هو سواسية صديقتها أو أنه مجرد تشابه بينهما، وخاصة أنها تعلم أن لسواسية ميراث في أسوان من والديها المتوفيين، قبل نزولها إلى القاهرة مع عمتها .

وقتها اختلط عليها الشبه بين سواسية الأنثى والرجل، ووقفت تنادي باسمها في الشارع، فارتبك الرجل وجاءها مسرعا، وبعد أن دقق في وجهها عرفها وقال لها:

– انتي الحاجة ليلى، إيه اللي جابك هنا ؟ !

فذكرت له أنها مع زوجها، حيث أنه من عمال بناء السد العالي، وسألته عما حدث له ، كيف أصبح رجلا، فحكى لها ما فعلته عمته بمشاركة زوجها ، حيث أنه ذات يوم اشتد به ألم النساء ، فذهب إلى طبيبق النساء، تلك التي ذكر لها ما فعلته به عمته من

عملية أخفت بها مظاهر رجولته ، وحولته إلى أنثى، حتى يستولوا على ميراثه، ففي مجتمعاتنا الأنثى لا ترث، وذلك قبل أن يعرف أن والديه قد باعا ما يملكان لأمه، حيث أنه لا أحد يتوقع أن يفعل والده تلك الفعلة، وأنهم حولوه أنثى حتى لا يرث ما تركه له أبواه، وبعد أن كشفت الطبيبة مكيدتهم وفعلتهم به، بلغت عنهم الشرطة وأجرت له عملية أخرجت له محاشمه التي أخفوها، وها هو قد عاد ليستلم ميراثه ويعيش حياته مع زوجته وأبنائه.

فصدقته وتمنت له التوفيق ورحلت واليوم كانت تشتري احتياجاتها من السوق فسمعت ما يقولون، فجاءت لتعلم الحقيقة.

فقال لها الحضور إن صديقتها اخترعت تلك الحكاية لتحرق ماضيها وأنها لم تزل أنثى، ملقية في الداخل، ليس من سمات رجولة عليها سوى قوة بنيانها، وصوتها الغليظ .

فأكدت لهم أنها كانت تتسم بنفس السمات من الصغر ، حتى أنها صدقت روايته تلك عندما قالها .

صرخ الولد الأكبر لاعنا سواسية:

– وأل أبوي ابن مين؟ ! وإيه اللي جابني هنا ؟ !

أما الولد الثاني فكان سؤاله أكثر منطقية . .

– وفين باقي أعمامها وقرايبها ؟ !، هم مش عارفين إنها بنت من البداية، وعايشين أصلا في أسوان؟إزاي رجعت ؟ !، وإزاي أخدت كل ميراثها ؟ !

فأجابتهم السيدة أن عمتها وزوج عمتها قد اختفوا عقب هروبها بفترة من القرية، لأن سمعتهما قد تلطخت ، ولم يعد يجرؤ أحد منهما على رفع وجهه في وجه أبناء القرية أثر فعلة سواسية، حيث خاف الجميع على بناتهن من أن يعتدي عليهن الحاج محمد

زوج نبيهة، فرفضه المجتمع وخسر عمله بسبب فعلته، فكان الجزاء الوحيد البحث عن مكان آخر بعيد للعيش به، وقد ظن الجميع أنهما عادا إلى أسوان حيث يعيش باقي العائلة.

فرد الآخر غاضبا:

– طب وأهلها اللي عايشين أصلا في أسوان؟ محدش قال إنها بنت؟

فاقترح الضابط رأيا كان غافلا عنهم جميعا في هذا الشأن، فقد كان أعمامها يستنكرون فعلة أخيهم بكتابة ميراثه لزوجته وأنها بعد وفاتها ورثها إخوتها، فكان لعودة سواسية الذكر سببا وجيها لاستعادة أموال أخيهم.

وهنا انطلقت زبيدة، مؤكدة حديث الضابط، فذكرت أن أعمام سواسية كانوا في بداية زواجهما على صلة طيبة به، وساعدوه في

استعادة كل ميراثه من أهل والدته ثم بعد أن استعاد ميراثه وقوي شأنه وبنيانه، رفض تحكمهم به وشبت بينهم مشاجرة قوية أودت بحياة أحد أبناء عمومته، وحاولوا كثيرا قتله إلا إنه كاد أن يفلت منها بأعجوبة وبقوة شخصيته التي لم يستطع أحد تجاوزها استطاع أن يكون كبير العائلة، وخفتت كافة الأصوات جوار صوته، فأصبح هو الأعلى شأنا والأقوى قيمة، خاصة بعد وفاة أعمامه واحدا يلو الآخر على مر السنين، أما أبناء أعمامه فقاطعهم وابتعد عنهم، لما ظهر بهم من خبث، وحقد عليه، على عكس أقاربه من أمه حيث اقترب منهم وكان يدفع لهم مستحقات ومبالغ تعينهم على المعيشة، فكسبهم وكون عزوته ضد أعدائه من أبناء عمومته.

تنهد الولد الأكبر، حيث اقتنع بما قالوه، ووقف الضابط يهم بالرحيل هو والطبيب، فالتفت الأبن الأكبر لزيدة وابنها قائلا:

- إيه؟! وانتوا مش ناويين تفارقونا؟!

اندهشت زبيدة مما قال، وخاطبته بضعف:

- نروح فين يا ابني؟

فأجابها بصوت مرتفع:

- أعتقد بعد ما الحقيقـة بانت ملكيش عيش هنا ، لا أنت ولا ابنك اللي جايباه من الحرام.

حينها اندفع إليه الابن الثاني مشاجرا إياه فارتفعت الأيدي متنازعة يبطش كل منهما الآخر، فوقفت الأم تلطم وجهها ، وتحاول أن تفض تشابكهما ، لكنهما انهالا عليها بالسباب والضرب، فانتشلتها السيدة التي كانت ما تزال موجودة، تبعدها عن بطشهما ، وتمسح دماءَها التي سالت على جبينها، فارتفع صوت الولد الأكبر:

- أنت تاخد أمك وتغور من هنا ، ملكوش حاجة عندنا .

فيرد عليه الآخر:

- وأنت يعني اللي ليك ؟ !، أنت كمان محدش يعرف أنت مين، تلاقيك لقيط ابن حرام!

فيدفعه الآخر:

- أنا لقيط وابن حرام، على الأقل لسه محدش عرف أنا مين، أما أنت فعرفنا خلاص، وملكش مكان هنا، الورث ورثي.

فيبطشه الآخر:

- الورث ده بتاعي أنا وأنت، أنت نسيت إن اسمه ورا اسمي، قدام القانون ده أبويا زي ما هو أبوك.

تذكرهم السيدة بأن ما زال هناك بحث وقضاء لابد وأن يحكم بينهم، وأن جثة سواسية لم تغادر البيت إلى الآن ، وأن الأولى من شجارهما أن يواري جسدها التراب.

فلعنها الأكـبر وترك المنـزل ذاهبا إلى المقهى، بينما بصق الثاني في وجه أمه، وتركها متوجها إلى النهر.

نظرت زبيدة إلى الأرض بينما جلست جوارها الحاجة ليلى تواسيه وتطلب منها أن تتماسك ، فكل إلى زوال، وأيا كان الأمر فلابد وأن تسـرع بدفن سواسية، فأومأت السيدة برأسها موافقـة، وراحـت تنادي إحدهن لتقف معها في الغســل، قامت وخلعت عنها ملاءتها التي تغطيها، وغسلتها بدموع أعينها التي لم تتوقف بره ــة، فكانت دموعها على الماضي الذي لا يموت مهما تفرقـت الوجوه .

ومرت السنوات، فلكل قصة جذورها التي ستنبت وتترعرع يوما ما، فيراها العامة وضوح الشمس، ويقطف العابرون ثمارها، ولأن تراب العمر لا يجرؤ على الكتمان مهما تراكم، إنه يحتاج فقط لبضع



لفحات من الهواء والعواصف ، أو قطرات من الماء ليكشف عن باطنه، وما حواه وأخفاه سنوات وسنوات.

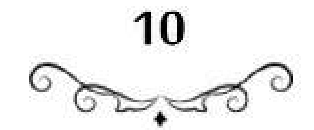
بينما تقوم زبيدة بغسل سواسية، تترك أمينة المنزل بصحبة والدتها ذاهبة لمنزل أبيها الذي طالب بطلاق ابنته بعد فضيحة سواسية.

سارت الجنازة إلى المقابر في غياب أهل القرية، سارت وخلفها تسير زبيدة تنثر دموع السنوات على الأرض الجافة

دفنت وتركت سيرتها تتداول يمينا ويسارا ، ولأنها كتب على سيرتها اللغط والتداول، فجاءت إلى الدنيا بنواح عجوز، وماتت بنواح امرأة حفظت الجميل، وعاشت طوال عمرها تعاري نواح روحها .

***

10



مرت الشهور واستمرت المشاحنات بين الولدين ليل نهار، فيطالبه الأكبر بالرحيل، بينما يرفض الأصغر ذاكرا أنه يحمل بطاقة ثبوتية تقر بأنه ابن السيد سواسية شكر الله، ولا يوجد في القانون ما يغير هذا الوضع، وأنه شريك له في كل ما ورثه.

فيهب فيه الأكبر بأنه ليس له أي حقوق، وأن الحق له وحده، فيذكره الأصغر بأن لا أحد يعرف نسبه إلى الآن، ولعله لقيط هو الآخر، أما زبيدة فقد أوهنها الكبر، وأضيف على عمرها سنوات من الحزن، فظهر وجهها شاحب وجسدها نحيلا لا يقوى على الشجار، فاستكانت في مقعدها، تنظر لولديها وهما يتشاجران، تتذكر ذلك العمر الذي ضاع في تربيتهما بعينين دامعتين.

تذكر كيف كانت تعدل بينهما ، وتلبي طلبات الكبير على حساب الصغير أحيانا حتى لا يشعر بشيء من التميز ، ذلك الفتى الآن الذي يريد طردهما هي وأخاه.

تصمت برهة ، وتراودها الكلمات في عقلها تقتل ما تبقى من سعادة في نفسها، كلمات تكسوها شجنا ، وتزهق عمرا ليس بمديد، هو حقا ليس أخاه، وهي ليست أمه، ولا نعلم صلته بسواسية، لعله أقرب له نسبا ، ومن حقه تلك الأملاك.

لابد أن تستغفر لذنبها وتتحمل الباقي من عناء أيامها هي وولدها ، فقررت أن تترك البلدة على أثر فضيحتها، ترك البلدة وترك ولدها الأكبر الذي تقطر دما لفراقه، فالأم هي من عانت بتربية أبنائها لا من قذفته من رحمها ورمته أرضا ، وهي عانت في تربيته إلى أن شب رجلا، عاشت معه كل لحظاته من وجع وألم وفرح، وكانت له

خير عون وأم، لكن بعد ما حدث عليها أن تلملم الباقي من كرامتها هي وصغيرها، وتترك له البلدة، عليها أن تحميهما من العراك، أن تحميهما من نفسهما، عليها أن تظل أما إلى النهاية

جال كل ذلك في خاطرها قبل أن تتفوه به لابنها الأصغر، ولكنها قامت لتبلغه قرارها وهي تلملم أشياءها، فنظر لها بحمق، مبلغها بعدم رحيله، وأن لا أحد يمكنه انكار نسبه لأبيه سواسية، وأنه لن يترك الأملاك للكبير، و إذا كانت ترغب في الرحيل، فلتذهب وحدها .

نظرت له بقلب دامٍ، وعيون أغرقها الدمع، تسأله:

– أمشي لوحدي؟! هتسيب أمك بعد العمر ده تمشي لوحدها في الدنيا؟!!

فرد عليها بقسوة أسقتها طعم المرار . .

- ياريتك كنت مُتِّي قبل اليوم ده وارتاحنا !

تلقت كلماته بوجع يشرق صدرها ، لململت أحزانها التي تهاوت، وغادرت منزلها لا تعرف إلى أين تذهب، جرت خيباتها وتركت المنزل الذي لم تخرج منه قط إلا لقضاء حاجاتهم المنزلية.

خرجت لا تعرف لها وجهة ، مثلما جاءت أول مرة إلى تلك البلدة، وقابلها سواسية، وحماها في بيته ففي المرة الأولى كانت بصحتها، كان يمكن أن تعمل كخادمة في أي مكان لكن الآن قد أوهنها الكبر وأخذت الأحزان ما تبقى من عمرها، راودتها فكرة الانتحار . .

لِمَ لا تلقي نفسها بنهر النيل ، لعله يشفي ما بها ألم، ويخفي سرها بين أحضانه كما يخفي طميه الأصيل.

تقف على حافة النهر بعينين حزينتين تحاول أن تلقي نفسها في النهر، فتهرع إليها سيدة شطر المعدي، تنظر لها زبيدة في حزن، فتجدها الحاجة ليلى . . .

- إيه يا ست زبيدة بس اللي هتعمليه ده . . أنت عايزة تموتي كافرة؟!

- حاجة ليلى!، أنا تعبت يا أختي، طول العمر شغل وتعب، وفي الآخر بنطرد من عيالنا .

- تعالي يا أختي، اتسندي عليا، الناس لبعضيها . تعالي معايا بيتي معززة مكرمة، إن مشالتكيش الأرض أشيلك في عنيا .

متزعليش يا أختي، من امتى كان لينا قيمة ولا وجود، ومن امتى الرجالة بتشيلنا، ده لا ابن ولا جوز . . يسدوا النفس!!

تشبث زبيدة في يدها ، وكأنها وجدت طوق نجاة ينقذها مما هي فيه، بعد لحظات تأتي المعدية لتنقلهما إلى الجانب الآخر لنهر النيل، ومن ثم تستقلان إحدى السيارات الأجرة لتنقلهما إلى منزل ليلى.

***



11

تجلس أمينة مع صديقاتها في منزل والدها، محاولات بث الهدوء فيها وتوعيتها بأهمية العودة لمنزل زوجها، وعدم السماع لأهلها حتى لا تنهي حياتها بيديها.

- يا أمينة اعقلي كده وارجعي بيت جوزك، هو يعني كان غلط في إيه، اللي حصل مش بإيديه، الواد بيحبك وإيديه فرطة.

فتجاوبها أمينة في حزن:

- وأنا أعمل إيه بس، أبويا محكم رأيه إنه لازم يطلقني منه، بيقول إنه مش عايز عاره يطوله.

فتلاحقها إحداهن:

- عاره، وهو في راجل ملهوش عار؟!، ده الراجل من دوول لو مكنش يغلط مرة واتنين وعشرة مبيعتبرش نفسه راجل، تعالي

شوفي البت سيدة، شغالة وطلعان عينها بره وجوه والقرش اللي بتجمعه مصروف في البيـت عليـه وعلى أهله، وياريتها بتلاقي معاملة عدلة.

فترد عليها إحداهن بعد مصمصة شفاهها ماقت حالها:

– آه يا أختي، عندك حق، ده أنا المحروق جوزي سافر ليبيا من كام سنة وسابني أنا والعيلين في إيدي وحتة لحمة حمرا في بطني، ولا أعرف عنه حاجة ولا حتى مصاريف عياله بنشوفها، لولاش حمايا بيديني كنت شحت، طب يدوني واحد كده زي جوزك وأنا مقمش من تحت رجليه، مش تقولي له أبوه طلع مَرَة!

تضحك إحداهن على ما قالته . .

– حقه، إلا موضوع الراجل بوتي مَرَة ده، كل ما أفتكره أموت من الضحك.

فيضحكن جميعا ويتهامسن في سخـريتي، ثم يطلبون منها الرحيـل ليستطعن الإفراج عن حوارهن في غيابها، فتزداد ضحكاتهن.

***



12

بينما ينتصب محمد في قهوته، بنفس هيبة سواسية، يقدم رجل خمسيني أبيض اللون، ذو شارب يكسوه البياض وبعض شعيرات صفراء اللون، عريض المنكبين، فاره الطول، ترتسم عليه ملامح الرجولة، ولكن يظهر بين أبناء البلدة بالاختلاف، فيعرف أنه من الأغراب عن البلدة، يسأل عن الحاج سواسية، فيقترب منه محمد، يخبره أنه قد توفي، ويسأله عما يعرفه عنه.

فيجلس الرجل وقد ملأت الدموع عينيه، ويردد كلمات غير مفهومة، ولكن سمعها محمد . .

- يبوي انتوا عرفتوا الحقيوة.

سمعها محمد فانصهر في جسده الجليد، وراح يتسارع في سؤاله سؤالا يلي الآخر:



- أنا عارفك، أنت كنت بتيجي هنا وتقعـد مع سواسية على جنب تتكلموا كتير، وعمرها ما قالت لنا غير إنك واحـد من بحري بتورد لنا حاجات، قول لي أنت مين، وتعرف إيه عننا، إيه اللي تعرفه بالضبط؟! اتكلم .. قول إيه اللي تعرفه، وحقيقة إيه اللي أنت مخبيها؟

فصمت الرجل والدموع تملأ حلقه، وراح يهدئه:

- اصبر يا ابني، أنا هحكي لك كل حاجة.

فلفظ محمد كلمات يطلب منه سرعة الإجابة، فاستجاب الرجل لمطلبه واستأذنه بكوب من الماء ليروي ظمأه، فأذن له وجاء له بكوب من الماء، فشربه وبدأ في سرد حكايته، وسط جموع من الناس التفت لتهدئة محمد في عنفوانه مع الرجل، و أدركوا أنه يحمل

من الأسرار ما سيكشف لهم حقيقة سواسية، فالتفوا حوله علهم يجدوا في روايته مبررا .

تنهد الرجل في مجلسه وبدأ يعرفهم بنفسه ، فقد كان يدعى محمود الحلواني، ويقطن أحد أحياء الأسكندرية، وكان يعمل موظفا في الشهر العقاري لأحد أحياء المحافظة ، كان شابا وسيما تلتف حوله الفتيات لما يحمل من وسامة ، كان يتفنن في صنع السهرات الخاصة ، التي تهب له السعادة، رغم تدين عائلته، ورغبة والدته الدائمة في البحث عن زوجة له تعينه وتحفظه، إلا أنه كان يجد في سهراته وعاهراته بغيته، فما الحاجة للزواج إذا، طالما أنه يحصل على ما يرغب، ويهب لنفسه سعادة جديدة على فراش إحداهن دون التزامات، كانت تخيف الالتزامات، وأن يكون مسئولا عن زوجة ومصاريف، فراتبه يكفي شهوته بصعوبة لكنه يعينه على خداع

أي امرأة يجدها بطريقه، فمركزه ووظيفته المرموقة ورغبة أمه الملحة في زواجه كانت ستارة لخداع أي أنثى يجدها بطريقه صعبة المنال، في وهمها بزواج ومستقبل وآمال تتمناها الفتيات، وبعد أن يلتف حولها كأخطبوط بشري، ويقيدها بخيوطه لتقع فريسة بين فكيه، يتركها لحوى غيرها، بحجة أنها لا تصلح أن تكون زوجة، فهي لم تستطع الحفاظ على اسم والدها فكيف لها أن تحافظ على اسمه وسمعته، وظل هكذا من فتاة إلى أخرى، حياة بلا هدف ولا معنى سوى أن يجد بغيته في قلوب النساء.

إلى أن قذفته قدماه في طريق سواسية، تلك الأنثى التي تحمل كل المتناقضات، بين أنوثة مظهرها ورجولة تصرفاتها، فهي تختلف عن ذلك النوع الذي اعتاد أن يهواه، فمظهرها غير المنمق، ومهنتها الرجولية حيث كانت تعمل في أحد متاجر صناعة الخشب الصغيرة

في البلدة، وتحمل الأخشاب بسواعد رجل فحل ، له من القوة ما يجعله يتحمل هذه المتاعب، فأعجبه ذلك المشهد وراح يتبعها ويراقب حركاتها من على كرسيه في المقهى القريب من مكان عملها، حاول أن يختبرها، فسلط عليها من يواعدها ويفتنها، لكنها لقنته درسا لن ينساه، حيث استجمعت كل قوى جسدها النحيل وألقت بها على وجهه في لطمة سمع صداها أهل الحي، كان نتاجها أن أمطره أهل المنطقة بضربات كادت ترديه، قضى على أثرها أربعة أيام في المستشفى، مما زاد شغفه بها، فأراد أن يلقي عليها خيوطه العنكبوتية لكنها كانت تقطعها كلما سلطها عليها بوسامته، فكان جزاؤها أنه قدم للزواج منها، وسط دهشة عائلته ورفضهم لها، فكيف لموظف من عائلة كبيرة، مر أمام عينيه من فتيات جميلات أن يتزوج بتلك الفتاة "المسترجلة" التي لا تناسبه، ولا أحد

يعلم أصلها ونسبها ، لكنه أصر على الزواج منها ، و أقام لها عرسا شهدته المنطقة.

صمت برهة استعاد فيها الليلة ليرويها على مسامعهم . . .

***



13

تتعالى أصوات الموسيقى من كل جانب، وتتمايل الراقصة على أنغامها لتشع جوا مليئا بالفرح والرغبة بين الحضـور، وتدق الطبول لتعلن زفة العروس ودخولها منزل الزوجيـة، يقف على الباب لفيف من العائلة، ينتظـرون انفراج همهم ليعلنوا للعـالم أن كنـز المـرأة في شرفها، ومتعة الرجل في فضه.

دخلت معهما والدته لتطمئن على سلامة زوجـة ابنها، ووسط صرخاتها وألمها من فض بكارتها بسبب عملية الختان القسري التي تعرضت لها في طفولتها، استطاع الأستاذ محمود الحلواني أن يثبت رجولته وشرف سواسية، فعلت الزغاريد في الأرجاء، و أطلقت النيران وغادر المدعو ون، وظلت سواسية في بيته تراعيه كزوج ة وتنتظر ذلك المولود الذي بثه في رحمها.

لكـن من شاب على شيء شاب عليـه، فلم يبالِ محمود الحلواني بزوجته، بعدما نالها وفقـدت لذتها بالنسبـة له، وشعر بجملها أنها قيدته رغم فرحته بالمولود، لكنه كان ينكر عليها فعلتها، فهو يحب أن يظل هـذا الرجل الطائر بين الزهور يتغذى على رحيقها، فزهرة واحدة لا تكفي، ولا تشبع من جوع.

راح يقلّب الحقـول على أنثى تذيقه ما يريد، ويلتهم منها متعته في الصيد، وظل يراود حانات الهوى ليجد بغيته في متعة كاذبة تعيد إليه رونقه ويثبت فيها رجولته، أما هي فكانت تنتظره في سكون، فقد قتلت غـيرتها مع أول انتكاسه لها، وأدركت أن الرجال جميعا كقطعـة عجـين واحدة، تشكلت في قوالب مختلفة، فزوجها الذي تمنت أن يكـون سـترها وضلها ما هو إلا صورة لحبيبها، وزوج عمتها، فازداد حقدها على الرجل، وتمنت أن تكون رجلا يفعـل

ما يشاء. كانت تستقبله كل ليلة في سكون، بلا أي حديث أو مهاترات لوضعه الذي بات يتدهور يوما بعـــد يوم، فمرتبه ما عاد يكفي لوازم البيت، فأجبرها على العودة للعمل في محل النجـــارة، فنزلت وهي تحمل طفلها جنينا في رحمها، تعمل وتحمل الخشـب على كتفها وتصلح الكراسي والأرائك، لكن ما تقتاته من صاحـب المحل لم يكن كافيا، خاصة مع زيادة نفقاته على العاهرات.

خافت أن تثور، فقد تعلمـت من عمتها فن الصمـت والرضا بالمكتوب، تعلمت أن المرأة في مجتمعنا ليس لها صوت، وأن صوتها يكفي للبكاء سـرا، كانت تدعو الله له لعله يترك ما يفعل ويعـود لبيتها وابنهما الذي ستلده بعد أيام، لكن لا فائدة، فإن الله لا يغـير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسـهم، وهو لا يتغير، سعيد بحاله هذا، سعيد لدرجة أنه لم يجد أحيانا ما يمنعـه من أن يحكي لها ما تفعله

الغانيات به، ويروي لها قصصهن وما أودى بهن لطريق الفاحشة، فكانت تسمعه مشفقة عليهن لا عليه، فهو واحد من ألوف يستحقون القتل.

أنجبت مولودها، وأسماه محمد، ولكنه انشغل عن تقييده في أوراق الدولة، ولم تهتم سواسية لذلك، فالمهم أن مولودها بخير وتضمه بين ذراعيها. تذكرت والدتها وكيف كانت تتمنى أن تكون معها تلك الأيام، أن تفرح بمولودها الذي حباها الله به دون أن تتعطش لرؤياه.

فاحت ذكرى والدتها في عقلها، وراحت تطلب منه السماح لها بالسفر لزيارة ضريح أبويها، فتعجب أنها تتحدث معه لأول مره عن عائلتها، وأن لها بيتا ومقهى كبير، وأملاك أخذوها منها لأنها أنثى، فلمعت في عقله فكرة لم يصرح بها، ووافق أن يصطحبها لزيارة قبر أسرتها، لا لتعاطفه معها، بل ليتأكد من صدق كلامها.

فلما وصلوا إلى الاقصر، تركها في المقابر وراح يعـس عن حقيقة الأمر، فعلِم أن ما تقوله حقيقـة، وأن أعمامها تمنوا لو كانت رجـلا ليستردوا ما ضاع منهم في إرث أخيـهم، فذهب إليهم، دون أن يصرح لها، وأفصح لهم عن فكرته التي قبلوها بالترحيـب الشديد، وراحـوا ينتظرون عودة ابن أخيـهم سواسية، ذلك الشـاب الذي سيستعيد مال أبوي، ويضعه في كنف أعمامه وذويه.

عاد محمود الحلواني متفائلا، وأخذ سواسية في غفلة حتى لا يشعـر بوجـودها أحد، وعـادوا إلى الأسكنـدرية، ليصرح لها عما اتفـق عليـه مع أعمامها. فرحت لحظـة، ورجعت خائفة فكيـف لها أن تتقن الدور حتى لا يشعر أحد بها أو يشك في أمرها.

كان الحلواني يلاحقها بأن أعمامها سيظلون في ظهرها حتى تستعيد كل أملاكها، وأنه سيقـوم بعمل أوراق لها تثبت أن سواسية ذكرا

وليس أنثى، وأحضر لها من الملابس ما يمكنها من التخفي، وكان صوتها المحشرج كافيا أن تتخفي في خلفه دون أن تصطنع صوتا ذكوريا، وكان لقوة ساعدها ما يؤهلها أن تصبح سواسية الرجل، لكن كانت العقبة في ابنها، فكان لابد وأن تتركه حتى تستطيع أن تتقن دورها، فخبطت على صدرها تطلب منه وترجوه أن يقلع عن فكرته، وأنها لا تريد شيئًا من الدنيا سوى أن ترى بعينيها ابنها وتضمه بين ذراعيها، فنهرها ووعدها بأن يعود لحضنها بمجرد أن تحصل على أملاكها، حيث رغد العيش للجميع، فقبلت مستنكرة، وتقمصت شخصية الرجل التي طالما تمنت أن تعيشها، لكنها قررت أن تكون الرجل الذي ترغب، الرجل الذي يعي معاناة المرأة، فيحترمها، الرجل الذي يسمع ويلين صدره مع المظلوم، والشرس مع الظالم إلى أن يرد حق من ظلم.

سافرت إلى أهلها وهي تعرف الرواية التي تم الاتفاق عليها مع زوجها، وباتت منتشرة في أرجاء البلدة، وهي أن عمتها لعدم إنجابها أخفتها في هيئة أنثى، إلى أن كبر وعلمت حقيقتها، فعادت لتسترد حقوقها، وسط أهلها وأعمامها، الذين استقبلوها بحرارة الاستقبال - خلاف ما اعتادت منهم، فابتسمت لظلمهم وأخفت حقدها، وساعدتهم في نشر الكذبة، وانتظرت حتى يصدقها الجميع، فينقلب ثأرها على أعمامها.

***

14

استطاعت سواسية في وقت صغير أن تثبت أنها رجلا، فالتف حوله الكثير من الأخلاء الصادقين، ساعدوه أن يسترد حقه ورغم أنه استرد حقه من أهل والدته إلا أنه أبقى على خاله يعمل معه، مما استشاط غضب أعمامه، لكن بقوته التي فرضت نفسها على البلدة لم يستطع أحد الوقوف بصدده.

كان حلمها الوحيد أن تستعيد ابنها كما استعادت أملاكها، فكانت تنزل كل فترة إلى الأسكندرية لتطمئن عليه، وتحضر له ما لذَ وطاب، وكانت تكرم مرضعته حتى تعتني به، وظلت على هذه الحال قرابة عامين، حاول أصدقاؤه خلالها حثه على الزواج، وحاولت السيدات تزويجه لكنه أبى، كان يرفض بحجة أنه متزوج من امرأة يحبها بالأسكندرية وله منها أطفال، وكانوا يطلبون منه أن

يأتي بها إلى البلدة ليعيشوا سويا، وكان يصرح لهم أن هذا ما سيفعله بمجرد أن تستقر الأوضاع.

إلى أن جاء اليوم الذي قابل فيه فتاة القطار، ورأى أن واجبه الستر عليها في مقابل أن لا تقترب منه، وأن لا تعاشره معاشرة الأزواج، ولتجد من ينجدها وافقت، وجاء بابنه الأكبر محمد ليعيش معهما، مقابل مبلغ من المال يدفع لزوجها شهريا حتى لا يتفوه بأية كلمة، ويترك لها ابنها يكبر في كنفها ورغدها.

***

15

وهنا صمت محمود الحلواني عن الحديث، بينما سأله محمد:

- يعنى عايز تفهمني إن أنا ابنك وابن سواسية ؟!

فرد عليه:

- أيوه يا ابني، دي الحقيقة.

- يعني أنا مش ابن حرام؟!

- استغفـر الله يا ابني، سواسية عمرها ما عاشت في الحـرام، كانت خير الأم، وخير المَرَة، وخير الراجل.

فانتشر الخبر في المدائن، وعادت سمعة سواسية ترفرف في السماء، ترحم عليها الحاضرون، وعاد محمد إلى منزله يتحسس جـدرانه، ويفتش في ملابس أمه، يترحم على امرأة لم تجد في الدنيا مـلاذها، وحـاربت لأجـل الحفـاظ على ابنها ، ومستحوياتها ، غزالة بأنياب

حادة، التهمها المجتمع فأنارت للآخرين الحياة، وجد من قصتها ما يجعله يتعاطف مع المرأة، فذهب ليبحث عن تلك المرأة التي ربته ليكرمه آخر عمرها، فإذا كانت الخطيئة أنثى، فالرجل يرتكب باسمها أعظم الآثام.

ففي مجتمعاتنا الرجل لا يكون رجلا إلا إذا تجرأ على المرأة، فهو رجل متى عنفها وسقاها قهرا، وخدعها باسم الحب، خانها دون أن يراعي رقة قلبها، وما إن شب فتى على قدميه كانت أمه أول من ينهر فيرفض كلامها، محاولا السيطرة عليها، وعندما يتزوج يختر أمه تسمعه دون أن تتكلم، اسفنجة تمتص خذلانه دون أن تتساقط منها بضع قطرات من ألمها.

في مجتمعاتنا لابد و أن تتحمل المرأة حتى تمر أيامها دون أن يحملها أحد ذنب تفكك الأسرة وضياع الأبناء، في مجتمعاتنا المرأة مذنبة

فإذا دق قلبها وأعطت ثقتها في رجل خانها وعابها المجتمع، وإذا تأخرت في الزواج كان بها علة، وإن تزوجت تحملت كل عناء زوجها وأبنائها، دون أن تتحدث، وإلا كانت متمردة وناشذا، وإذا لم تنجب فهي عاقر ويحق للرجل الزواج بأخرى، وإذا أنجبت ولم تحسن تربية أبنائها فهي مذنبة وإذا خانها زوجها عليها أن تتحمل، وإذا خانت لابد وأن تموت.

في مجتمعاتنا الذكورية، تعيش المرأة نصف أنثى، بقلب امرأة وعقل رجل ليستوعب كل المتاعب والمشاكل التي تمر بها بحكمة، ويعيش الذكر بقلب رجل قاس وعقل أنثى أنانية لا ترى شيئًا سوى رغدها .

راح يقلب الارض على زبيدة، إلى أن علم بمرضها ، ووجودها في منزل الحاجة ليلى، فراح ليطلب منها السماح ، ويلح في رغبته في

عودتها إلى منزله، فرحت زبيده وعادت معه، وعاد أخوه إلى المنزل فوجدها، فهمَّ إليها لينهرها فوقف له محمد بالمرصاد:

– إذا كنا مش اخوات فالست د ي هي اللي ربتنا وليها علينا الرعاية، زي ما سواسية رعاها وسترها .

فهب فيه مصطفى:

– أنت بتقول كده عشان عرفت إنك ابن حلال، أما أنا ذنبي إيه ألاقي أمي زانية؟ !

فبكت زبيدة، وحنا عليها محمد:

– متعيطيش، انتي مش ذنبك حاج ة ، كفاية عشتي العمر كله مترهبنة بتدفعي تمن غلطة عملتيها، عشتي العمر رافعـــة راس أبونا ساترة بيته وحافظة عرضه وشرفه، العيب مكانش فيكي، العيب كان في اللي خانك.

وأنت يا مصطفى، لو شغلت مخك هتفهم، و إن كان على الورث فاحنا ولاد الحاج سواسية رسميا ، ومفيش أي قانون يمنع عننا أي ميراث، ويبقى الوضع على ما هو عليه، والدنا مات، و أنت أخويا ، والست دي أمنا .

– والناس؟ !

– الناس بتنسى، واللي مش عايز ينسى يفتكـر، يفتكـر سر الست اللي عاشت راجل عشان تحافظ عل ى عيالها ، وعلى عيال غيرها ، وألف بيت فاكر بردو الخير اللي كانت بتعمله.

– أنت شايف إن كده الدنيا اتعدلت واحلوت، أنت موهوم، أنا ماشي، ومش عايز أعرف عنكم حاجة تاني.

يتركه مصطفى ويخرج خارج المنزل والبلد ة، ويقرر أن لا يعود، بينما يقف محمد ممسكا بيد زبيد ة، يقبلها ويؤازرها ، ويقسم لها بعود ة

ابنها عندما تخف وطأة أحزانه، وتدخل أمينة وجوارها والدها ليعيدها لمنزل زوجها، فيبتسم فاه لعودتها، فتجري عليه مقبلة يمينه وتصرخ له:

– أنا أجبرتهم إني أرجع، أنا بحبك يا محمد، أنا مقدرش أعيش من غيرك.

فينصحها محمد وهي في حضنه:

– اعملي اللي أنتي عايزاه .. اصرخي، اضحكي، العبي، ثوري، اعملي كل اللي نفسك فيه، ده حقك، ده حق الإنسانية.

***


تمت
تابعوا على التلجرام
t.me/book100100

من إصدارات مؤسسة زحمة كُتَّاب

الشعر والخاطرة :

- لابس وش : علاء أحمد
- فعشقت مجددًا : أحمد لملوم
- امرؤ الهلس : إسماعيل علي
- إنسان فالصو : محمد الشحات
- فأنت تفاح أخضر : عبد الرحمن حميدة
- ضل ونور : لمياء عامر
- تراتيل عاشقة : شاهندة الزيات
- ثورة عاشق لم تكتمل : محمد أبو ذكري
- وجع الحنين : هيام الجمل

- أبجدية حب : كواعب البراهمي
- لك الحب : إيمان زايط
- حب في زمن حزين : السيد حسان
- فراغ عاطفي : على نمر
- ضل ونور : لمياء عامر
- هلاليات : عبد الرحمن الهلالي
- الشتاء الأخير : آية على الشاعر
- مني لك : عبلة موسى، خالد غازي
- سكتة حب : عبلة موسى
- خلطة مطبعية : إيهاب الكيلاني
- خارج دواير الانتظار : أحمد رامي عبدالله
- 1/2 كدر : عثمان عبدالمنعم

سواسية – منة الله رأفت

- لسه ! : رفيدا حسن
- كلمات تروي حكايات : محمد العدلي
- خيال يرتب ألفاظه : د. محمد عبدالله الشيخ
- على ضفاف الزمن مررت بذاكرتي : سهير عبدالله رخامية
- ولي أمل : إسلام عبدالعزيز
- ومضات : محمد يحيى
- المواطن سحلب : أحمد سعد

الرواية والقصة القصيرة :

- استربتيز : منة الله رأفت
- الصامتون تحت الأرض : هبة حمدي
- المواجهة الملعونة : محمود شاهين

- العذاب الحلو : سالي غانم
- للأحلام اسم آخر لا نعرفه : محمد صلاح المصري
- طائر في الظلام : إيمان عبد الخالق
- هن : ولاء بيومي
- رجل ضد العالم : سمير زكي
- (HIV) من مذكرات مثلي : علاء أحمد
- للخطايا ثمن : محمد الجعفري
- حلم مبتور : إسراء جاد
- سواسيـــــة : منة الله رأفت